مكتبة الأسرة 1999

مهرجان القراءة للجميع

سلسلة التراث

رواية

حى بن يقظان

لابن طفيل

المصرية العامة للكتاب

رواية حى بن يقظان لابن طفيل

رواية
حى بن يقظان
لابن طفيل

إعداد

د. سمير سرحان   د. محمد عنانى



مهرجان القراءة للجميع ٩٩

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(سلسلة التراث)

رواية حى بن يقظان لابن طفيل

إعداد: د.سمير سرحان   د. محمد عنانى

الجهات المشاركة:
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة التنمية الريفية
المجلس الأعلى للشباب والرياضة
التنفيذ : هيئة الكتاب

الغلاف
والإشراف الفنى:
الفنان: محمود الهندى
المشرف العام:
د. سمير سرحان

على سبيل التقديم

وتمضى قافلة «مكتبة الأسرة» طموحة منتصرة كل عام، وها هى تصدر لعامها السادس على التوالى برعاية كريمة من السيدة سوزان مبارك تحمل دائمًا كل ما يثرى الفكر والوجدان ... عام جديد ودورة جديدة واستمرار لإصدار روائع أعمال المعرفة الإنسانية العربية والعالمية فى تسع سلاسل فكرية وعلمية وإبداعية ودينية ومكتبة خاصة بالشباب. تطبع فى ملايين النسخ التى يتلقفها شبابنا صباح كل يوم .. ومشروع جيل تقوده السيدة العظيمة سوزان مبارك التى تعمل ليل نهار من أجل مصر الأجمل والأروع والأعظم.

د. سمير سرحان

تصدير

شغلت قصة حى بن يقظان أذهان الأدباء والفلاسفة فى الشرق والغرب، منذ أن كتبها ابن طفيل فى القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) وحتى النهضة العربية الحديثة ، والغريب أن يكون اهتمامنا بها راجعاً إلى اهتمام الأوربيين بها فى ترجماتها المتعاقبة، وتعليقاتهم وشروحهم التى ألقت الضوء على عدة جوانب من جوانب تطور الفكر العربى والإسلامى فى تلك الحقبة البعيدة، وفى فلك يدور فيه ابن سينا وابن رشد وغيرهما من كبار فلاسفتنا .

ويسعد مكتبة الأسرة أن تقدم اليوم إلى القارئ العربى النص الكامل لهذه الرواية ، الفلسفية، حتى يتسنى للجميع إدراك بعض حقائق التطور الفكرى الذى بهر العربُ العالَم به ، فكان ما كتبه الأوربيون عنها، وما استلهموه منها يفوق مرات عديدة ما كتبه أبناء العربية أنفسهم . أما المؤلف فهو أبو بكر محمد بن عبد الملك بن محمد بن طفيل الأندلسى القيسى ، الذى ولد فى نحو عام ٥٠٠ للهجرة (١١٠٦م) فى وادى آشر، التى تقع إلى الشمال الشرقى من غرناطة فى الأندلس . وقد عمل فى

مستهل حياته بالطب ثم تولى الوزارة (التى كانت تسمى الحجابة) فى غرناطة ، ثم اتصل ببلاط الموحدين فى المغرب ، وكان يُشار إلى ذلك القطر العربى الشقيق آنذاك باسم «إفريقية » (مثلما كان يُشار إلى غيره مثل تونس) ولم يلبث أن عين فى عام ٥٤٩ هـ (١١٥٤م) كاتماً لسر الأمير أبى سعيد بن عبد المؤمن حاكم سبتة وطنجة ، ثم عاد إلى ممارسة الطب، إذ أصبح الطبيب الخاص لأبى يعقوب يوسف سلطان الموحدين فى عام ٥٥٨ هـ (١١٦٣م) ويبدو أنه كان لا يزال يحتفظ بمنصبه بالبلاط على امتداد عشرين عاماً، قضاها فى التأمل والدراسة إلى جانب ممارسة الطب، ثم اعتزل العمل ربما لكبر سنة عام ٥٧٨ هـ (١١٨٢ - ١١٨٣م) فى بلاط السلطان أبى يعقوب فخلفه تلميذه ابن رشد الذى يعتبرمن أعظم فلاسفة العالم ، ثم توفى ابن طفيل عام ٥٨١ هـ (١١٨٥م) فى مدينة مراكش ودفن بها ، تاركاً عدداً من المؤلفات التى فقد معظمها، ولم يبق منها سوى رواية حى بن يقظان وبعض الأشعار المتفرقة .

أما جوهر الفكرة التى تقوم عليها الرواية فلم يكن جديداً، ولا هو بجديد اليوم ، والجديد هو تناول ابن طفيل للفكرة، وصياغتها صياغة روائية ، فالجوهر هو لقاء الإنسان على فطرته الأولى بالطبيعة البكر ، ونمو تفكيره وتطوره بعيداً عن تأثير المجتمع ، وهى من الأفكار التى شغلت الفكر الأوربى فيما بعد فى شتى مدارسه ، أمافكرة الجزيرة المنعزلة ونشوء إنسان بها تغذيه الحيوانات والطيور والنباتات (تتبنى حى بن يقظان

فى هذه الرواية غزالة ترضعه وترعاه) فهى شائعة فى الأدب الشعبى. وقد حكت لنا جداتنا فى طفولتنا قصة «ترنجة بنت رحيّة » التى رعتها الطيور حتى أصبحت عروساً ، كما تناول الفكرة عشرات القصاصين فى الشرق والغرب؛ من دانيال دينو (فى رواية روبنسون الذى تلقى به احدى السفن على شط جزيرة غير مأهولة) إلى الكاتب رديارد كبلنج (فى قصة كتاب الأدغال، حيث يرعى الطفل موجلى أسرة من الذئاب) ولكن المهم هنا هو أن ابن طفيل يتوسل بهذا الإطار العام ليرصد تطور تفكير الإنسان الفرد على فطرته، وتطور إحساسه بالوجود، واهتداءه إلى روح الكون وأخيراً إلى الله .

وقد سبق أن ألمح أحمد أمين إلى نظائر حى بن يقظان عند ابن سينا وغيره (**حى بن يقظان لابن سينا وابن طفيل والسهروردى** - دار المعارف - مصر - الطبعة الثالثة ١٩٦٦) ولابن سينا قصتان تحمل كل منهما عنواناً مماثلاً أو قريباً من عنوان قصة ابن طفيل ، الأولى هى «حى بن يقظان» والثانية هى «سلامان وإبسال» ، فالأولى تشترك مع قصة ابن طفيل فى تصوير رحلة الإنسان إلى المعرفة الخالصة عن طريق حواسه، وفيها يصور ابن سينا حى بن يقظان فى صورة شيخ مهيب اكتسب خبرة فائقة من تجاربه ورحلاته ، وأما الثانية فَقَدْ فُقِدَ أصلها، وعثر على ملخص لها، دوّنه أبو عبيد الجوزانى أحد تلامذة ابن سينا ، ومنه نعرف. أن سلامان وإبسال كانا أخوين شقيقين ، وهى قصة تختلف تماماً عن

قـصة حى بن يقظان الأولى، أو عنـد ابن طفيل ، فـهى تدور حول مـا نسـمـيـه الآن بقـصص الحب والغـواية والدسـائس ! وتشـابه أسـمـاء الشخصيات، إذن لا يعنى تماثل أو تشابه الموضـوع ، فالإسمان «سلامان وإبسال» هما أيضاً بـطلا قصة ترجمها حنين بن إسحـاق عن اليونانية ، ولو أن إبسال هنا امرأة ! وهى قصة لخصهـا الدكتور عمر فروخ فى كتاب صدر عـام ١٩٤٦ بعنوان «**ابن طفـيل وقصـة حى بن يقظان** - بيـروت ، والدكتور محمد غنيمى هلال، فى كتابه المشهور عن **الأدب المقارن** (مكتبة الأنجلو المصـرية - الطبعـة الثـالثة - ١٩٦٢) والحق أن شـتى نظائر هذه القصة ، السابقة منها واللاحقة ، لا تكاد ترتبط بها من حيث الجوهر ، وهذا هو مـا دعا العـقاد إلى التنوية بـذلك فى مقـال له بعنوان «حى بن يقظان» نشر فى كتابه **بحوث فى الأدب واللغة** (القاهـرة - دار غـريب - ١٩٧٠) نوجزه فيمايلى :

يقول العـقاد: إن قصة حى بن يقظـان تنتمى إلى ما يسمـيه (أدب المدن الفـاضلة) ، باعتـبـارها رحلة فكرية، أو نزهة خـياليـة، بدأت من المشرق فى هاتين الصورتين، وانتقلت إلى المغـرب فى مدى جيل واحد . وقد بدأت تلك الرحلة وتلـك النزهة بالطوبى التى وضعهـا الفارابى فى خلاصة المدينة الفاضلة ، وثناها أبو العلاء المعرى فى رسالة الغفران بتلك الرحلة السمـاوية، التى افتـتح بها هذا الباب فـى أدب القرون الوسطى .

ولعلها ظاهرة تكررت أسبابها فى العـالم الإسلامى والعالم الأوربى على التوالى حسب مناسباتها ودواعيها . ولعلها ظاهرة القلق والضيق بالدنيا، وما فـيها يوم كـانوا منفردين باليـقظة الفكرية ، منفردين كـذلك بالمحنة السياسية والاجتماعية ، وهى محنة واحدة خبرها أبو العلاء فى أيام الغارة الصليبية وخبرها الأندلسيون فى العراك بينهم وبين الدول الغربية الناشئة.

ثم ظهر البحث عن الفردوس المفقود، وعن العالم الآخر، وعن الطوبيات الاجتـماعـية بين الأوربيين يوم تكررت بـينهم أسبـاب كتلك الأسـباب، ونزعات كـتلك النزعـات ، فاقتـبس دانتى، من المعرى وابن العربى ، وظهر حى بن يقظان فى انجلترا، يوم كان ملتون يطلع على قصيدة دانتى، وعلى مقدمات الطوبى العربيـة في مخلفات القرون الوسطى . إنها ظاهرة القلق والضيق بالحياة الأرضية، كما اخـتبرها فلاسفة المسلمين فى القرنين الحادى عشر والثانى عـشر للميلاد ، ولم يمض على هذه الظاهرة قرن أو قرنان حتى سرت أسبابها إلى أوربا، فشغلت عقولها وقرائحها بالفراديس المفقـودة، والعوالم الأخـرى والطوبيات المتمناة . ولولا الـنزعة المادية فى العصـر الحديث لكان للضيق بالحـياة الأرضية أثر كـذلك الأثر فى زماننا هذا ، ولكنه يتـحـول إلى مـسـالك أخـرى ترداد الطوبيـات على الكرة الأرضـيـة، ولا ترتفع عنهـا، ولن تصل إلـى شىء مـالم يكن رائد من الضمير ومن الرجاء فيما وراء الأرضيات .

هذا هو التحليل العميق الذى قدمه العقاد العظيم للرواية، باعتبارها ظاهرة ومذهباً فكرياً وفلسفة إنسانية ، أما عن بناء الرواية فنحن نجد ابن طفيل متمكنًا من فن السرد والوصف والتشويق ، سابقاً عصره، وسابقاً العالم كله إلى فن الرواية الحديثة .

إن مكتبة الأسرة تفخر بتقديم هذا العمل الأدبى الفلسفى كاملاً لأول مرة فى هذه الصورة إلى قراء العربية .

والله من وراء القصد،

مكتبة الأسرة

بسم الله الرحمن الرحيم

-١-

الحمد لله العظيم الأعظم ، القديم الأقدم ، العليم الأعلم ، الحكيم الأحكم ، الرحيم الأرحم ، الكريم الأكرم ، الحليم الأحلم ﴿ **الَّذي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** ﴾[١] . و﴿**وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً**﴾[٢] . أحمده على فواضل النعماء ، وأشكره على تتابع الآلاء . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله . صاحب الخلق الطاهر ؛ والمعجز الباهر والبرهان القاهر والسيف الشاهر ؛ صلوات الله عليه وسلامه ، وعلى آله وأصحابه أولي الهمم العظائم ، وذوي المناقب والمعالم ، وعلى جميع الصحابة والتابعين ، إلى يوم الدين ، وسلم تسليماً كثيراً .

سألت أيها الآخ الكريم ، الصفى الحميم - منحك الله البقاء الأبدى وأسعدك السعد السرمدى - أن أبث إليك ما أمكننى بثه من أسرار **الحكمة المشرقية**[٣] التى ذكرها الشيخ الرئيس **أبو علي بن سينا**[٤]

فأعلم : أن من أراد الحق الذى لا جمجمة فيـه ، فعليه بطلبها والجد فى اقتنائها .

❁

ولقد حرّك منى سؤالك خاطراً شريفاً أفضى بى - والحمد لله - إلى مشاهدة حال لم أشهدها قبل ، وانتهى بى إلى مبلغ هو من الغرابة ، بحيث لا يصفه لسان ، ولا يقوم به بيان . لأنه من طور غير طورهما ، وعالم غير عالمهما . غير أن تلك الحال ، لما لها من البهجة والسرور ، واللذة والحبور ، لا يستطيع من وصل إليها وانتهى إلى حد من حدودها ، أن يكتم أمرها أو يخفى سرها ، بل يعتريه من الطرب والنشاط والمرح والانبساط ، ما يحمله على البوح بها مجملة دون تفصيل ، وإن كان ممن لم تحذقه العلوم قال فيها بغير تحصيل ؛ حتى إن بعضهم قال فى هذه الحال : «سبحانى ما أعظم شأني»[5] ، وقال غيره : « أنا الحق ! » ، وقال غيره : « ليس فى الثوب إلا الله ! »[6] .

❁

وأما الشيخ **أبو حامد الغزالى**[7] رحمة الله عليه ، فقال متمثلاً عند وصوله إلى هذا الحال بهذا البيت :

فكان ما كان مما لست أذكره　　　فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر

وإنما أدَّبته المعارف ، وحذَّقته العلوم .

✿

وانظر إلى قــول أبى بكر بن الصائغ(٨) المتصــل بكلامه فى صــفة الاتصال ، فإنه يقـول : «إذا فهم المعنى المقصود من كـتابه ذلك ، ظهر عند ذلك أنه لا يمكن أن يكون مـعلوم من العلوم المتعـاطاه فى مرتبـته ، وحصل متصوره بفهم(*) ذلك المعنى ، فى رتبـة يرى نفسه فـيها مـباينـاً لجميع مـا تقدم ، مع اعتقادات أُخر ليـست هيولانية ، وهى أجلّ من أن تنسب إلى الحياة الطبيعيـة ، بل هى أحوال من أحوال السعداء منزهة عن تركيب الحياة الطبيعية ، خليقة أن يقال لها أحوال إلهية يهبها الله سبحانه وتعالى لمن يشاء من عباده .

وهذه الرتبـة التى أشـار إليهـا أبو بكر ينتـهى إليـهـا بطريق العلم النظرى والبحث الفكرى ، ولاشك أنه بلغها ولم يتخطها .

✿

وأما الرتبة التى أشـرنا إليها نحن أولاً ، فهى غـيرها ، وإن كانت إياها بمعنى أنه لا ينكشف فـيهـا أمر على خلاف مـا انكشف فى هذه ، وإنمـا تغايـرها بزيادة الوضوح ومشـاهدتها بأمـر لا نسميـه قوة إلاّ على المجاز ، إذ لا نجـد فى الألفاظ الجمـهورية(**) ، ولا فى الاصطلاحـات

(*) فى بعض الطبعات : يفهم .

(**) الشعبة .

الخاصة، أسماء تدل على الشيء الذى يشاهد به ذلك النوع من المشاهدة . وهذه الحالة التى ذكرناها وحركنا سؤالك إلى ذوق منها ، هى من جملة الأحوال التى نبه عليها الشيخ أبو على حيث يقول : ثم إذا بلغت به الإرادة والرياضة حداً ما ، عنت له خلسات ، من اطلاع نور الحق ، لذيذة ، كأنها بروق تومض إليه ، ثم تخمد عنه ثم إنه تكثر عليه هذه الغواشى إذا أمعن فى الارتياض ، ثم إنه ليوغل فى ذلك حتى يغشاه فى غير الارتياض ، فكلما لمح شيئاً عاج عنه إلى جانب القدس ، فيذكر من أمره أمراً ، فيغشاه غاش ، فيكاد يرى الحق فى كل شىء . ثم إنه لتبلغ به الرياضة مبلغاً ينقلب له وقته سكينة : فيصير المخطوف مألوفاً ، والوميض شهاباً بيّناً ، وتحصل له معارفه مستقرة كأنها صحبة مستمرة ... إلى ما وصفه من تدرج المراتب ، وانتهائها إلى النيل بأن يصير سره مرآة مجلوة يحاذى بها شطر الحق . « وحينئذ تدر عليه اللذات العلى ، ويفرح بنفسه لما يرى بها من أثر الحق ، ويكون له فى هذه الرتبة إلى الحق ، ونظر إلى نفسه ، وهو بعد متردد . ثم إنه ليغيب عن نفسه فيلحظ جناب القدس فقط ، وإن لحظ نفسه فمن حيث هى لاحظة ، وهناك يحق الوصول » .

✿

فهذه الأحوال التى وصفها ، # ، إنما أراد بها أن تكون له ذوقاً ، لا على سبيل الإدراك النظرى المستخرج بالمقاييس ، وتقديم المقدمات ،

وإنتـاج النتـائج ، وإن أردت مثـالاً يظهـر لك به الفـرق بين إدراك هذه الطائفة وإدراك سواها ، فـتخيل حال من خلق مكفـوف البصر ، إلا أنه جيد الفطرة ، قوى الحدس ثابت الحفظ ، مـسدد الخاطر فنشأ مذ كان فى بلدة من البلدان ، ومازال يتعرف أشخـاص الناس بها ، وكثيراً من أنواع الحيوان والجمادات ، وسكك المدينة ومسـالكها وديارها وأسواقها ، بما له من ضروب الإدراكـات الأخر ، حـتى صار بحـيث يمشى فى تلك المدينة بغير دليل ، ويعرف كل من يلقـاه ويسلم عليه بأول وهلة ، وكان يعرف الألوان وحدها بشروح أسمائهـا ، وبعض حدود تدل عليها . ثم إنه بعد أن حصل فى هذه الرتبة فـتح بصره وحدثت له الرؤية البصـرية ، فمشى فى تلك المدينة كلها وطاف بها فلم يجد أمراً على خلاف ما كان يعتقده ، ولا أنكر من أمرها شيئاً . وصـادف الألوان على نحو صدق الرسوم عنده ، والتى كـانت رسمت له بهـا ، غيـر أنه فى ذلك كله حدث لـه أمران عظيـمان ، أحدهمـا تابع للآخر ، وهـما : زيادة الوضـوح والانبلاج ، واللذة العظيمة .

فحـال الناظرين الذين لم يصلوا إلى طور الولاية هى حـالة الأعمى الأولى : والألوان التى فى هذه الحال معلومة بشروح أسمائها ، هى تلك الأمور التى قـال أبو بكر إنها أجل من أن تنسب إلى الحيـاة الطبيعـية ، يهـبهـا الله لمن يشـاء من عبـاده . وحال الـنظار الذين وصلوا إلى طور الولاية ومنحهم الله تعالى ذلك الشىء الذى قلنا إنه لا يسمى قوة إلا على سبيل المجاز ، هى الحالة الثانية .

وقد يوجد فى النادر من كان أبداً ثاقب البصيرة ، مفتوح البصر غير محتاج إلى النظر . .

❁

ولست أعنى أكرمك الله بولايته - بإدراك أهل النظر(*) ها هنا ، ما يدركونه من عالم الطبيعة ، وبإدراك أهل الولاية(**) ، ما يدركونه مما بعد الطبيعة ، فإن هذين المدركين متباينان جداً بأنفسهما ، ولا يلتبس أحدهما بالآخر . بل الذى نعنيه بإدراك أهل النظر ، ما يدركونه مما بعد الطبيعة ، مثل ما أدركه أبو بكر . ويشترط فى إدراكهم هذا أن يكون حقاً صحيحاً ، وحينئذ يقع النظير بينه وبين إدراك أهل الولاية الذين يعتنون بتلك الأشياء بعينها مع زيادة وضوح ، وعظيم التذاذ ، وقد عاب أبو بكر هذا الالتذاذ على القوم ، وذكر أنه للقوة الخيالية ، ووعد بأن يصف ما ينبغى أن يكون حال السعداء عند ذلك ، بقول مفسر مبين . وينبغى أن يقال له ها هنا : « لا تستحل طعم شىء لم تذق ، ولا تتخط رقاب الصديقين! » ولم يفعل الرجل شيئاً من ذلك ، ولا وفى بهذه العدة ، وقد يشبه أن منعه عن ذلك ما ذكره من ضيق الوقت واشتغاله بالنزول إلى « وهران » أو رأى أنه إن وصف تلك الحال اضطره القول إلى أشياء فيها قدح عليه فى سيرته ، وتكذيب لما أثبته من

(*) الفلاسفة .

(**) المتصوفون .

الحث على الاستكثار من المال والجمع له وتصريف وجوه الحيل فى اكتسابه .

❁

وقد خرج بنا الكلام إلى غير ما حركتنا إليه بسؤال بعض خروج ، بحسب ما دعت الضرورة إليه ، وظهر بهذا القول أن مطلوبك لم يتعد أحد غرضين :

١- إما أن تسأل عما يراه أصحاب المشاهدة والأذواق والحضور فى طور الولاية : فهذا مما لا يمكن إثباته على حقيقة أمره فى كتاب ، ومتى حاول أحد ذلك وتكلفه بالقول أو الكتب ، استحالت حقيقته ، وصار من قبيل القسم الآخر النظرى ، لأنه إذا كسى الحروف والأصوات وقرب من عالم الشهادة ، لم يبق على ما كان عليه بوجه ولا حال ، واختلفت العبارات فيه اختلافاً كثيراً ، وزلت به أقدام قوم عن الصراط المستقيم ، وظن بآخرين أن أقدامهم زلت وهى لم تزلّ ؛ وإنما كان ذلك لأنه أمر لا نهاية له فى حضرة متسعة الأكناف ، محيطة غير محاط بها .

٢- والغرض الثانى من الغرضين اللذين قلنا إن سؤالك لن يتعدى أحدهما ، هو أن تبتغى التعريف بهذا الأمر على طريقة أهل النظر . وهذا - أكرمك الله بولايته - شىء يحتمل أن يوضع فى الكتب وتتصرف به العبارات ، ولكنه أعدم من الكبريت الأحمر ، ولا

سيما فى هذا الصقع الذى نحن فيه(*) ، لأنه من الغرابة فى حد لا يظفر باليسير منه إلا الفرد بعد الفرد ؛ ومن ظفر بشىء منه لم يكلم الناس به إلا رمزاً ، فإن الملة الحنيفية والشريعة المحمدية قد منعت من الخوض فيه ، وحذرت عنه(*) .

ولا تظن أن الفلسفة التى وصلت إلينا فى كتب أرسطو وأبى نصر ، وفى كتاب الشفاء تفى بهذا الغرض الذى أردته ، ولا أن أحداً من أهل الأندلس كتب فيه شيئاً فيه كفاية ، وذلك أن من نشأ بالأندلس من أهل الفطرة الفائقة ، قبل شيوع علم المنطق والفلسفة فيها ، قطعوا أعمارهم بعلوم التعاليم وبلغوا فيها مبلغاً رفيعاً ، ولم يقدروا على أكثر من ذلك . ثم خلف من بعدهم خلف زادوا عليهم بشىء من علم المنطق ، فنظروا فيه ولم يفض بهم إلى حقيقة الكمال ؛ فكان فيهم من قال :

بَرْحَ بــى أنَّ علــوم الورَى	إثنانِ ما إن فِيهما من مَزِيدْ
«حقيــقــةُ» يُعْجِزِ تَحصِيلُها	و«باطــلٌ» تَحصيلُهُ مايفيدْ

❁

ثم خلف من بعدهم خلف أحذق منهم نظراً ، وأقرب إلى الحقيقة ، ولم يكن فيهم أثقب ذهناً ، ولا أصح نظراً ، ولا أصدق رؤية ، من أبى

(*) الأندلس .

بكر ابن الصائغ غيــر أنه شغلته الدنيا ، حــتى اخترمته المنيــة قبل ظهور خزائن علمه ، وبث خفايا حكمته . وأكــثر ما يوجد له من التآليف فإنما هى غير كـاملة ومجزومة من أواخــرها ، ككتابه «فى النفس»[9] و«تدبير المتوحد»[10] وما كتبــه فى المنطق وعلم الطبيعة ، وأما كتــبه الكاملة فهى كتــب وجــيزة ورسائل مــختلسة ، وقــد صرح هو نفســه بذلك وذكر أن المعنى المقصود برهــانه فى «رسالة الاتصال»[11] ليس يعطيــه ذلك القول عــطاء بيّناً إلا بعد عــسر واستكراه شــديد . وأن ترتيب عــبارته فى بعض المــواضع على غير الطريق الأكمل ؛ ولو اتسع له الوقت مال لتبديلها . فـــهــذا حـــال مــا وصــل إلينا مــن عــلم هذا الرجل ، ونحــن لم نلق شخصه(*) .

وأما من كان مــعاصراً له ممن لم يوصف بأنه فى مثــل درجته ، فلم نر له تأليفاً .

واما مــن جاء بعــدهم من المعــاصــرين لنا ، فــهــم بعــد فــى حــد التزايـد أو الوقــوف علــى غيـر كمــال ، أو ممـن لــم تصـل إلينــا حقـيقة أمره .

❁

وأمــا مــا وصــل إلينا مــن كــتب أبى نصر[12] فأكثرها فى المنطق .

(*) المقصود هنا هو « ابن باجه » .

وما ورد منها فى الفلسـفة فهي كثيرة الشكوك . . : فـقد أثبت فى كتاب «الملـة الفاضلة»[١٣] بقاء النفوس الشريرة بعد الموت فى آلام لا نهاية لها ، بقـاء لا نهـاية له ؛ ثـم صـرح فـى «السـياسـة المدنيـة»[١٤] بأنهـا منحلة وصـائرة إلى العـدم ، وأنه لا بقـاء إلا للنفـوس الفـاضلة الكاملة . ثم وصف فى شرح «كـتاب الأخلاق»[١٥] شيئاً من أمر السـعادة الانسانية ، وأنها إنما تكون فى هذه الحياة وفى هذه الدار ؛ ثم قـال عقب ذلك كلامًا هذا معناه « وكل ما يذكر غير هذا فهـو هذيان وخرافات عجائز » . فهذا قد أيأس الخلق جميعاً من رحمـة الله تعالى ، وصير الفاضل والشرير فى رتبة واحدة إذ جعل مصيـر الكل إلى العدم ؛ وهذه زلة لا تُقال ، وعثرة ليس بعدها جـبر . هـذا مع مـا صرح به من سوء مـعتقـده فى النبوة ، وأنها بزعمه للقـوة الخيالية ، وتفضيله الفلسفة عليـها إلى أشياء ليس بنا حاجة إلى إيرادها .

❁

وأما كتب «أرسطوطاليس»[١٦] فقد تكفل الشيخ أبو على بالتعبير عما فيها ، ، وسلك طريق فلسفـته فى «كتاب الشفاء»[١٧] ، وصرح فى أول الكتاب بأن الحق عنده غيـر ذلك ، وأنه إنما ألف هذا الكتاب على مذهب المشائين وأن من أراد الحق الذى لا جمجمة فيـه فعليه بكتابه فى «الفلسفة المشرقية»[١٨] . ومن عنى بـقـراءة كـتـاب «الـشـفـاء» وبقـــراءة كـتب أرسطوطاليس، ظهـر له أكثـر الأمور أنهـا تتفق ، وإن كـان فى كـتاب

«الشفاء» أشياء لم تبلغ الينا عن أرسطو . وإذا أخذ جميع ما تعطيه كتب أرسطو وكتاب «الشفاء» على ظاهره دون أن يتفطن لسره وباطنه، لم يوصل به إلى الكمال حسبما نبه عليه الشيخ أبو على فى كتاب «الشفاء» .

❁

وأما كتب الشيخ أبى حامد الغزالى ، فهو بحسب مخاطبته للجمهور ، يربط فى موضع ، ويحل فى آخر ، ويكفر بأشياء ثم ينتحلها ، ثم إنه من جملة ما كفر به الفلاسفة فى «كتاب التهافت»(١٩) . إنكارهم لحشر الأجساد ، وإثباتهم الثواب والعقاب لنفوس خاصة . ثم قال فى أول كتاب «الميزان»(٢٠) : «إن هذا الاعتقاد هو اعتقاد شيوخ الصوفية على القطع» . ثم قال فى كتاب «المنقذ من الضلال والمفصح بالأحوال»(٢١) : «إن اعتقاده هو كاعتقاد الصوفية ، وإن أمره إنما وقف على ذلك بعد طول البحث» ؛ وفى كتبه من هذا النوع كثير يراه من تصفحها وأمعن النظر فيها . وقد اعتذر عن هذا الفعل فى آخر كتاب «ميزان العمل»(٢٢) . حيث وصف أن الآراء ثلاثة أقسام :

١- رأى يشارك فيه الجمهور فيما هم عليه .

٢- ورأى يكون بحسب ما يخاطب به كل سائل ومسترشد .

٣- ورأى يكون بين الإنسان وبين نفسه لا يطلع عليه إلا من هو شريكه فى اعتقاده .

ثم قال بعد ذلك : « ولو لم يكن فى هذه الألفاظ إلا ما يشكك فى اعتقادك المورث لكفى بذلك نفعاً . فإن من لم يشك ، لم ينظر ، ومن لم ينظر ، لم يبصر ، ومن لم يبصر ، بقى فى العمى والحيرة ، ثم تمثل بهذا البيت :

« خُذْ ما تَراهُ وَدَعْ شيئاً سَمِعْتَ بِهِ
فِى طَلعةِ الشَّمسِ مَا يُغنِيكَ عَنْ زُحَلِ »

فهذه صفة تعليمه؛ وأكثره إنما هو رمز وإشارة لا ينتفع بها إلا من وقف عليها ببصيرة نفسه اولاً ، ثم سمعها منه ثانياً ، أو من كان معداً لفهمها ، فائق الفطرة ، يكتفى بأيسر إشارة .

وقد ذكر فى «كتاب الجواهر»(٢٣) ، أن له كتباً مضنوناً بها على غير أهلها وأنه ضمنها صريح الحق . ولم يصل الأندلس فى علمنا منها شىء ، بل وصلت كتب يزعم بعض الناس أنها هى تلك المضنون بها ؛ وليس الأمر كذلك ، وتلك الكتب هى كتاب «المعارف العقلية»(٢٤) ، وكتاب «النفخ والتسوية»(٢٥) و«مسائل مجموعة»(٢٦) وسواها . وهذه الكتب ، وإن كانت فيها إشارات ، فإنها لا تتضمن عظيم زيادة فى الكشف على ما هو مثبوت فى كتبه المشهورة . وقد يوجد فى كتاب « المقصد الأسنى»(٢٧) ما هو أغمض مما فى تلك ، وقد صرح هو بأن كتاب «المقصد الأسنى» ليس مضنوناً به فيلزم من ذلك أن هذه الكتب الواصلة ليست هى المضنون بها . وقد توهم بعض المتأخرين من كلامه الواقع فى

آخر « كتاب المشكاة»[٢٨] أمراً عظيماً أوقعه فى مهواة لا مخلص له منها ، وهو قوله – بعد ذكر أصناف المحجوبين بالأنوار ، ثم انتقاله إلى ذكر الواصلين : إنهم وقفوا على أن هذا الموجود العظيم متصف بصفة تنافى الوحدانية المحضة . فأراد أن يلزمه من ذلك أنه يعتقد أن الحق سبحانه فى ذاته كثرة ما ؛ تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً ! .

ولاشك عندنا فى أن الشيخ أبا حامد ممن سعد السعادة القصوى ، ووصل تلك المواصل الشريفة المقدسة . لكن كتبه المضنون بها المشتملة على علم المكاشفة لم تصل إلينا .

❁

ولم يتخلص لنا ، نحن ، الحق الذى انتهينا إليه ؛ وكان مبلغنا من العلم يتتبع كلامه وكلام الشيخ أبى على ، وصرف بعضها إلى بعض ، وإضافة ذلك إلى الأراء التى نبغت فى زماننا هذا ، ولهج بها قوم من منتحلى الفلسفة ، حتى استقام لنا الحق أولاً بطريق البحث والنظر ، ثم وجدنا منه الآن هذا الذوق اليسير بالمشاهدة ، وحينئذ رأينا أنفسنا أهلاً لوضع كلام يؤثر عنا ، وتعين علينا أن تكون – أيها السائل – أول من أتحفناه بما عندنا ، وأطلعناه على ما لدينا لصحيح ولائك – وزكاء صفائك . غير أنّا إن ألقينا إليك بغايات ما انتهينا إليه من ذلك ، من قبل أن نحكم مباديها معك ، ولم يفدك ذلك شيئاً أكثر من أمر تقليدى مجمل ! هذا إن أنت حسنت ظنك بنا بحسب المودة والمؤالفه ، لا بمعنى

أنا نستحق أن يقبل قولنا . ونحن لا نرضى لك هذه المنزلة ونحن لا نقنع لك بهذه الرتبة[*] ، ولا نرضى لك إلا ما هو أعلى منها ، إذ هى غير كفيلة بالنجاة فضلاً عن الفوز بأعلى الدرجات ، وإنما نريد أن نحملك على المسالك التى قد تقدم عليها سلوكنا ، ونسبح بك فى البحر الذى قد عبرناه أو حتى يقضى بك إلى ما أفضى بنا إليه : فتشاهد من ذلك ما شاهدناه وتتحقق ببصيرة نفسك كل ما تحققناه ، وتستغنى عن ربط معرفتك بما عرفناه .

وهذا يحتاج إلى مقدار معلوم من الزمان غير يسير ، وفراغ من الشواغل وإقبال بالهمة كلها على هذا الفن . فإن صدق منك هذا العزم ، وصحت نيتك للتشمير فى هذا المطلب ، فستحمد عند الصباح مسراك ، وتنال بركة مسعاك، وتكون قد أرضيت ربك وأرضاك ، وأنالك حيث تريده من أملك ، وتطمح إليه بهمتك وكليتك . وأرجو أن أصل من السلوك بك على أقصر الطريق، وآمنها من الغوائل والآفات، وإن عرضت الآن إلى لمحة ، يسيرة على سبيل التشويق والحث على دخول الطريق ، فأنا واصف لك قصة «حي بن يقظان» و «أسأل[**] وسلامان»[٢٩] الذين سماهم الشيخ أبو على[٣٠] . ففى ﴿ قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾[٣١] و ﴿ ذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾[٣٢] .

(*) فى بعض الطبعات : نحن لا نقنع لله بهذه الرتبة فقط .

(**) ترد أيضاً « ابسال » .

-٢-

ذكر سلفنا الصالح - رضى الله عنهم - أن جزيرة من جزائر الهند التى تحت خط الاستواء ، وهى الجزيرة التى يتولد بها الإنسان من غير أم ولا أب ، وبها شجر يثمر نساء ، وهى التى ذكر المسعودى أنها جزيرة الوقواق(٣٣) لأن تلك الجزيرة أعدل بقاع الأرض هواء ؛ وأتمها لشروق النور الأعلى عليها استعداداً ، وإن كان ذلك خلاف ما يراه جمهور الفلاسفة وكبار الأطباء ، فإنهم يرون أن أعدل ما فى المعمورة الأقليم الرابع ، فإن كانوا قالوا ذلك لأنه صح عندهم أنه ليس على خط الاستواء عمارة لمانع من الموانع الأرضية ، فلقولهم : إن الأقليم الرابع أعدل بقاع الأرض وجه ، وإن كانوا إنما أرادوا بذلك أن ما على خط الأستواء شديد الحرارة ، كالذى يصرح به أكثرهم فهو خطأ يقوم البرهان على خلافه . وذلك أنه قد تبرهن فى العلوم الطبيعية أنه لا سبب لتكوّن الحرارة إلا الحركة أو ملاقاة الأجسام الحارة والإضاءة ؛ وتبين فيها أيضاً أن الشمس بذاتها غير حارة ولا متكيفة بشىء من هذه الكيفيات المزاجية ؛ وقد تبين

فيـها أيضـاً أن الأجسام التـى تـقبل الإضاءة أتم القـبول ، هى الأجـسام الصقيلة غير الشفافة ، ويليها فى قـبول ذلك الأجسام الكثيفة غير الصقيلة ، فأما الأجـسام الشفـافة التى لا شىء فيهـا من الكثافة فلا تقـبل الضوء بوجه . وهذا مما برهنه الشيخ أبو على(٣٤) خاصة ، ولم يذكره من تقدمه ، فإذا صحت هذه المقدمات ، فـاللازم عنها أن الشمس لا تسخن الأرض كما تسخن الأجسام الحارة أجسام أخر تماسها ، لأن الشمس فى ذاتها غير حارة ولا الأرض أيضاً تسخن بالحركـة لأنها ساكنة وعلى حالة واحدة فى شروق الشـمس عليها وفى وقت مغـيبهـا عنها . وأحوالها فى التـسخين والتبريد ، ظاهرة الاختلاف للحس فى هذين الوقتين . ولا الشمس أيضاً تسخن الهواء أولاً ثـم تسخن بعد ذلك الأرض بتوسط سـخونة الهواء ، وكيف يكون ذلك ونحن نجد أن مـا قرب من الهواء من الأرض فى وقت الحر ، أسـخن كثيـراً من الهواء الذى يبعـد منه علواً ؟ فبـقى أن تسخين

الشمس للأرض إنما هو على سبيل الإضاءة لا غير ، فإن الحرارة تتبع الضوء أبداً: حتى إن الضوء إذا أفرط فى المرآة المقعرة، أشعل ما حاذاها. وقـد ثبت فـى علوم التعـاليم بالبـراهـين القطعيـة ، أن الشمس كـروية الشكل ، وأن الأرض كذلك ، وأن الـشمس أعظم من الأرض كثـيراً ، وأن الذى يستضىء من الأرض بالشمـس أبداً هو أعظم من نصفها ، وأن هذا النصف المضـىء مـن الأرض فى كل وقت أشـد مـا يكون الضوء فى وسطه ، لأنه أبعد المواضع من الظلمة ، ولأنه يقـابل من الشمس أجزاءاً أكثـر ، ما قرب من المحيط كـان أقل ضوءً حتى ينتـهى إلى الظلمة عند

محيـط الدائرة الذى ما أضاء موقـعه من الأرض قط ، وإنما يكون الموضع وسط دائرة الضياء إذا كـانت الشمس على سمت رؤوس السـاكنين فيه ، وحينئـذ تكون الحرارة فى ذلك الموضع أشد ما يكون فـإن كان الموضع مما تبعـد الشمس عن مسامـتة رؤوس أهله ، كان شديد البرودة جداً ، وإن كان مما تدوم فيه المسامتة كـان شديد الحرارة ، وقد ثبت فى علم الهيئة أن بقاع الأرض التى على خط الأستواء لا تسامت الشمس رؤوس أهلها سوى مـرتين فـى العام : عنـد حلولها بـرأس الحـمل ؛ وعند حلولهـا برأس الميزان . وهى فى سائر العام ستة أشهر جنوباً منهم ، وستة أشهر شمالاً منهم : فليس عندهم حر مفرط ، ولا برد مفرط . وأحوالهم بسبب ذلك متشابهة .

وهـذا القـول يحـتـاج إلـى بيـان أكـثر من هـذا ، لا يليق بما نحن بسبيله ؛ وإنما نبهناك عليه ، لأنه من الأمور التى تشهد بصحة ما ذكر من تجويز تولد الإنسان بتلك البقعة من غير أم ولا أب[٣٥] . فمنهم من بت الحكم وجزم القـضية بأن « حى بن يقظان» من جـملة من تكوّن فى تلك البقعـة من غير أم ولا أب ، ومنهم من أنكر ذلك وروى من أمـره خبراً نقصه عليك ، فقال :

إنه كان بإزاء تلك الجزيزة ، جزيرة عظيمة مـتسعة الأكناف ، كثيرة الفـوائد ، عامـرة بالناس ، يملكهـا رجل منهم شديد الأنفـة والغيـرة ،

وكانت له أخت ذات جمال وحسن باهر فعضلها(*) ومنعها الأزواج إذا لم يجد لها كفواً .

وكان له قريب يسمى «يقظان» فتزوجها سراً على وجه جائز فى مذهبهم المشهور فى زمنهم . ثم إنها حملت منه ووضعت طفلاً . فلما خافت أن يفتضح أمرها وينكشف سرها ، وضعته فى تابوت أحكمت زمه بعد أن أروته من الرضاع ؛ وخرجت به فى أول الليل فى جملة من خدمها وثقاتها إلى ساحل البحر ، وقلبها يحترق صبابة به ، وخوفاً عليه ، ثم إنها ودعته وقالت :

- «اللهم إنك خلقت هذا الطفل ولم يكن شيئاً مذكوراً ، ورزقته فى ظلمات الأحشاء ، وتكفلت به حتى تم واستوى . وأنا قد ببلمته إلى لطفك ، ورجوت له فضلك ، خوفاً من هذا الملك الغشوم الجبار العنيد . فكن له ، ولا تسلمه ، يا أرحم الراحمين ! »[٣٦] .

ثم قذفت به فى اليم . فصادف ذلك جرى الماء بقوة المدة ، فاحتمله من ليلته إلى ساحل الجزيرة الأخرى المتقدم ذكرها . وكان المد يصل فى ذلك الوقت إلى موضع لا يصل إليه إلا بعد عام . فأدخله الماء بقوته إلى أجمة ملتفة الشجر عذبة التربة ، مستورة عن الرياح والمطر ، محجوبة عن الشمس تزاور عنها إذا طلعت ، وتميل إذا غربت . ثم أخذ الماء فى الجزر .

(*) منعها غصباً من الزواج .

وبقى التابوت فى ذلك الموضع ، وعلت الرمال بهبوب الرياح ، وتراكمت بعد ذلك حتى سدت مدخل الماء إلى تلك الأجمة . فكان المد لا ينتهى إليها ، وكانت مسامير التابوت قد فلقت ، وألواحه قد اضطربت عند رمى الماء إياه فى تلك الأجمة .

فلما اشتد الجوع بذلك الطفل ، بكى واستغاث وعالج الحركة ، فوقع صوته فى أذن ظبية فقدت طلاها(*) ، «خرج من كناسه(**) فحمله العقاب ، فلما سمعت الصوت ظنته ولدها»[٣٧] . فتتبعت الصوت وهى تتخيل طلاها حتى وصلت إلى التابوت ، ففحصت عنه بأظلافها وهو ينوء ويئن من داخله ، حتى طار عن التابوت لوح من أعلاه . فحنَت الظبية وحنّت عليه ورئمت به ، وألقمته حلمتها وأروته لبناً سائغاً . وما زالت تتعهده وتربيه وتدفع عنه الأذى .

هذا ما كان من ابتداء أمره عند من ينكر التولد . ونحن نصف هنا كيف تربى وكيف انتقل فى أحواله حتى يبلغ المبلغ العظيم .

❁

وأما الذين زعموا أنه تولد من الأرض فإنهم قالوا إن بطناً من أرض تلك الجزيرة تخمرت فيه طينة على مر السنين والأعوام ، حتى امتزج فيها

(*) ولدها .

(**) بيته .

الحار بالبارد ، والرطب باليابس ، امتزاج تكافؤ وتعادل فى القوى . وكانت هذه الطينة المتخمرة كبيرة جداً ، وكان بعضها يفضل بعضاً فى اعتدال المزاج ، والتهيؤ لتكون الأمشاج(*) . وكان الوسط منها أعدل ما فيها وأتمه مشابهة بمزاج الإنسان : فتمخضت تلك الطينة ، وحدث فيها شبه نفاخات الغليان لشدة لزوجتها : وحدث فى الوسط منها لزوجة ونفاخة صغيرة جداً ، منقسمة بقسمين ، بينهما حجاب رقيق ، ممتلئة بجسم لطيف هوائى فى غاية من الإعتدال اللائق به ، فتعلق به عند ذلك «الروح» الذى هو من أمر الله تعالى[٣٨] وتشبث به تشبثاً يعسر انفصاله عنه عند الحس وعند العقل ؛ إذ قد تبين أن هذا الروح دائم الفيضان من عند الله عزّ وجل ، وأنه بمنزلة نور الشمس الذى هو دائم الفيضان على العالم .

فمن الأجسام مالا يستضىء به ، وهو الهواء الشفاف جداً ؛ ومنها ما يستضىء به بعض استضاءة ، وهى الأجسام الكثيفة غير الصقيلة وهذه تختلف فى قبول الضياء ، وتختلف بحسب ذلك ألوانها ، ومنها ما يستضىء به غاية الاستضاءة وهى الأجسام الصقيلة كالمرآة ونحوها . فإذا كانت هذه المرآة مقعرة على شكل مخصوص ، حدث فيها النار لإفراط الضياء . وكذلك الروح ، الذى هو من أمر الله تعالى ، فياض أبداً على جميع الموجودات ؛ فمنها ما لا يظهر أثره فيه لعدم الاستعداد ، وهى

(*) الأنسجة .

الجمـــادات التى لا حياة لـها ، وهـذه بمنزلة الهـواء فى المثال المتـقدم ، ومنها مـا يظهر أثره فيـه ، وهى أنواع النبات بحـسب استعـداداتها وهذه بمنـزلة الأجسام الكثيفة فى المثال المتـقدم ؛ ومنها ما يظهر أثره فيه ظهوراً كثـيراً ، وهـى أنواع الحيوان ، وهذه بمنـزلة الأجسام الصقـيلة فى المثال المتقدم .

ومن هذه الأجسام الصقيلة ما يزيد على شدة قبوله لضياء الشمس أنه يحكى صورة الشمس ، ومثالها . وكذلك أيضاً من الحيوان ما يزيد على شدة قبوله للروح أنه يحكى الروح ويتصـور بصورته هو الإنسان خاصة . وإليـه الإشارة بقـولهﷺ : « إن الله خلق آدم على صـورته »(٣٩) . فإن قويت فيه هذه الصورة حتى تتلاشى جـميع الصور فى حقها ، وتبقى هى وحدها ، وتحرق سبحات نورها كل مـا أدركته ، كانت حينئذ بمنزلة المرآة المنعكسة على نفسها المحرقة لسواها وهذا لا يكون إلا للأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين . وهذا كله مبين فى مواضعه اللائقة به ، فليرجع إلى تمام ما حكوه من وصف ذلك التخلق .

قالـوا : فلما تعلق هذا الروح بتلك الـقرارة ، خضـعت له جمـيع القوى وسـجدت له وسخرت بأمـر الله تعالى فى كمالهـا ، فتكون بإزاء تلك القرارة نفاخة أخرى منقسمـة إلى ثلاث قرارات بينها حجب لطيفة ، ومسـالك نافذة ، وامـتلأت بمثل ذلك الهـوائى الذى امتلأت مـنه القرارة الأولى ؛ إلا أنه ألطف منه .

وسكن فى هذه البطون الثلاثة المنقسمة من واحد ، طائفة من تلك القوى التى خضعت له وتوكلت بحراستها والقيام عليها ، وإنهاء ما يطرأ فيها من دقيق الأشياء وجليلها إلى الروح الأول المتعلق بالقرارة الأولى .

وتكوّن أيضاً بإزاء هذه القرارة من الجهة المقابلة للقرارة الثانية ، نفاخة ثالثة مملوءة جسماً هوائياً ، إلا أنه أغلظ من الأولين وسكن فى هذه القرارة فريق من تلك القوى الخاضعة ، توكلت بحفظها والقيام عليها ؛ فكانت هذه القرارة الأولى والثانية والثالثة ، أول ما تخلق من تلك الطينة المتخمرة على الترتيب الذى ذكرناه .

واحتاج بعضها إلى بعض : فالأولى منها حاجتها إلى الآخرين ، حاجة استخدام وتسخير . والأخريان حاجتهما إلى الأولى حاجة المرؤوس إلى الرئيس ، والمدبر إلى المدبر ؛ وكلاهما لما يتخلق بعدهما من الأعضاء رئيس لا مرؤوس . وأحدهما ، وهو الثانى ، أتم رئاسة من الثالث . فالأول منهما لما تعلق به الروح ، واشتعلت حرارته تشكل بشكل النار لصنوبرى وتشكل أيضاً الجسم الغليظ المحدق به على شكله ، وتكون لحماً صلباً ، وصار عليه غلاف صفيق يحفظه وسمى العضو كله « قلباً » واحتاج لما يتبع الحرارة من التحليل وإفناء الرطوبات إلى شىء يمده ويغذوه ، ويخلف ما تحلل منه على الدوام ، وإلا لم يطل بقاؤه ، واحتاج أيضاً إلى أن يحس بما يلائمه فيجتذبه ، وبما يخالفه فيدفعه .

فتكفل له العضو الواحد بما فيه من القوى التى أصلها منه بحاجته الواحدة ، وتكفل له العضو الآخر بحاجته الأخرى . وكان المتكفل بالحس هو «الدماغ» ، والمتكفل بالغذاء هو «الكبد» ؛ واحتاج كل واحد من هذين إليه فى أن يمدهما بحرارته ، وبالقوى المخصوصة بهما التى أصلها منه ، فانتسجت بينهما لذلك كله مسالك وطرق : بعضها أوسع من بعض بحسب ما تدعو إليه الضرورة ، فكانت الشرايين والعروق .

ثم مازالوا يصفون الخلقة كلها والأعضاء بجملتها على حساب ما وصفه الطبيعيون فى خلقة الجنين فى الرحم ، لم يغادروا من ذلك شيئاً، إلى أن كمل خلقه ، وتمت أعضاؤه ، وحصل فى حد خروج الجنين من البطن ، واستعانوا فى وصف كمال ذلك بتلك الطينة الكبيرة المتخمرة ، وأنها كانت قد تهيأت لأن يتخلق منها كل ما يحتاج إليه فى خلق الإنسان من الأغشية المجللة لجملة بدنه وغيرها فلما كمل انشقت عنه تلك الأغشية ، بشبه المخاض ، وتصدع باقى الطينة إذا كان قد لحقه الجفاف .

ثم استغاث ذلك الطفل عند فناء مادة غذائه واشتداد جوعه ، فلبته «ظبية» فُقِدَ طلاها .

ثم استوى ما وصفه هؤلاء بعد هذا الموضع ، وما وصفته الطائفة الأولى فى معنى التربية ؛ فقالوا جميعاً :

إن الظبية التى تكفلت به وافقت خصباً ومرعى أثيثاً ، فكثر لحمها ودر لبنها ، حتى قام بغذاء ذلك الطفل أحسن قيام . وكانت معه لا تبعد عنه إلا لضرورة الرعى . وألف الطفل تلك الظبية حتى كان بحيث إذا هى أبطأت عند اشتد بكاؤه فطارت إليه .

❁

ولم يكن بتلك الجزيرة شئ من السباع العادية ، فتربى الطفل ونما واغتذى بلبن تلك الظبية إلى أن تم له حولان ، وتدرج فى المشى وأثغر(*) فكان يتبع تلك الظبية ، وكانت هى ترفق به وترحمه وتحمله إلى مواضع فيها شجر مثمر ! فكانت تطعمه ما تساقط من ثمراتها الحلوة النضيجة ؛ وما كان منها صلب القشر كسرته له بطواحنها ؛ ومتى عاد إلى اللبن أروته ، ومتى ظمئ إلى الماء أوردته ، متى ضحا(**) ظللته ؛ ومتى خصبر(***) أدفاته . وإذا جن الليل صرفته إلى مكانه الأول ؛ وجللته بنفسها وبريش كان هناك ؛ مما ملئ به التابوت أولاً فى وقت وضع الطفل فيه . وكان فى غدوهما ورواحهما قد ألفهما ربرب يسرح ويبيت معهما حيث مبيتهما .

❁

(*) برزت أسنانه .

(**) تعرض لأشعة وحرارة الشمس .

(***) برد .

فمـا زال الطفل مع الظباء على تلك الحال : يحكى نـغمتهـا بصوته حتى لا يكاد يفـرق بينهما ؛ وكـذلك كان يحكى جمـيع ما يسمـعه من أصوات الطير وأنواع سائر الحيوان محـاكاه شديد لقوة انفعاله لما يريده ؛ وأكثـر ما كانت محـاكاته لأصوات الظباء فى الاسـتصراخ والاستـئلاف والاستدعاء والاسـتدفاع . إذ للحيونات فى هذه الأحوال المخـتلفة أصوات مختلفة فألفته الوحوش وألفها ؛ ولم تنكره ولا أنكرها .

فلما ثبت فى نفسه أمثلة الأشياء بعد مغيبها عن مشاهدته ، حدث له نزوع إلى بعضها ؛ وكراهية لبعض .

وكـان فى ذلك كله ينظر إلى جميع الحيوانات فيراها كاسية.بالأوبار والأشعـار وأنـواع الـريش ، وكـان يـرى ما لـها مـن الـعدو وقـوة البطش ، وما لهـا من الأسلحة المعدة لمدافـعة من ينازعها ، مـثل القرون والأنـياب والحوافر والصياصي(*) والمخـالب . ثم يرجع إلى نفسـه ، فـيرى مـا به من العـري وعـدم الـسلاح ، وضـعف الـعدو ، وقلـة البـطش ، عندما كـانت تنازعه الوحوش أكـل الثـمرات ، وتستبـد بها دونه ، وتغلبه عليـها ، فلا يستـطيع المدافعة عن نفسـه ، ولا الفرار عن شيء منها .

وكـان يرى أترابه من أولاد الظباء ، قد نبـتت لها قرون ، بعد أن لـم تكن ، وصارت قوية بعـد ضعفها فى العدو . ولـم ير لنفسـه شيئاً

(*) قرن البقر والظباء .

من ذلك كله . فكان يفكر فى ذلك ولا يدرى ما سببه . وكان ينظر إلى ذوى العاهات والخلق الناقص فلا يجد لنفسه شبيهاً فيهم . وكان أيضاً ينظر إلى مخارج الفضول من سائر الحيوان ، فيراها مستورة : أما مخرج أغلظ الفضلتين فبالأذناب ، وأما مخرج أرقهما فبالأوبار وما أشبهها . ولأنها كانت أيضاً أخفى قضباناً منه . فكان ذلك ما يكربه ويسوءه .

فلما طال همه فى ذلك كله ، وهو قد قارب سبعة أعوام ، ويئس من أن يكمل له ما قد أضر به نقصه ، اتخذ من أوراق الشجر العريضة شيئاً جعل بعضه خلفه وبعضه قدامه ، وعمل من الخوص والحلفاء شبه حزام على وسطه ، علق به تلك الأوراق فلم يلبث إلا يسيراً حتى ذوى ذلك الورق وجف وتساقط . فما زال يتخذ غيره ويخصف بعضه ببعض طاقات مضاعفة ، وربما كان ذلك أطول لبقائه ! إلا أنه على كل حال ، قصير المدة .

واتخذ من أغصان الشجر عصياً وسوّى أطرافها وعدل متنها . وكان يهش بها على الوحوش المنازعة له ، فيحمل على الضعيف منها ، ويقاوم القوى منها ، فنبل بذلك قدره عند نفسه بعض نبالة ، ورأى أن ليده فضلاً كثيراً على أيديها : إذ أمكن له بها من ستر عورته واتخاذ العصى التى يدافع بها عن حوزته ، ما استغنى به عما أراده من الذنب والسلاح الطبيعى .

-٣-

وفى خلال ذلك ترعرع وأربى على السبع سنين ، وطال به العناء فى تجديد الأوراق التى كـان يستتـر بها . فكانت نفسـه عند ذلك تنازعه إلى اتخاذ ذنب من أذناب الوحوش الميتة ليعلقه على نفسه ، إلا أنه كان يرى أحياء الوحوش تتحامى ميتها وتفر عنه فلا يتأتى له الإقدام على ذلك الـفعل ، إلى أن صـادف فى بعض الأيام نسراً ميتاً فـهدى إلى نيل أمله منه ، واغتنم الـفرصة فـيه ، إذ لـم ير للوحوش عنه نـفرة فأقـدم عليه ، وقطع جناحيه وذنبه صحاحاً كما هى ، وفتح ريشها وسواها ، وسلخ عنه سائر جلده ، وفصله على قطعتين : ربط إحداهما على ظهره ، والأخرى على سـرته ومـاتحتـهـا ، وعلق الذنب من خلفـه ، وعلق الجناحين على عضديه ، فـأكسبه ذلك ستراً ودفـئاً ومهابة فى نفوس جـميع الوحوش ، حتى كانت لا تنازعه ولا تعارضه .

فصـار لا يدنـو إليه شىء منها سـوى الظبية الـتى كانـت أرضعـته وربتـه : فـإنها لـم تفـارقه ولا فـارقهـا ، إلـى أن أسنت وضعـفت ،

فكان يرتاد بها المراعى الخصبة ويجتنى لها الثمرات الحلوة ، ويطعمها .

وما زال الهزال والضعف يستولى عليها ويتوالى ، إلى أن أدركها الموت ، فسكنت حركاتها بالجملة ، وتعطلت جميع أفعالها . فلما رآها الصبى على تلك الحالة ، جزع جزعاً شديداً ، وكادت نفسه تفيض أسفاً عليها . فكان يناديها بالصوت الذى كانت عادتها أن تجيبه عند سماعه ، ويصيح بأشد ما يقدر عليه ، فلا يرى لها عند ذلك حركة ولا تغييراً . فكان ينظر إلى أذنيها وإلى عينيها فلا يرى بها آفة ظاهرة ، وكذلك كان ينظر إلى جميع أعضائها فلا يرى بشىء منها آفة . فكان يطمع أن يعثر على موضع الآفة فيزيلها عنها ، فترجع إلى ما كانت عليه فلم يتأت له شىء من ذلك ولا استطاعه . وكان الذى أرشده لهذا الرأى ما كان قد اعتبره فى نفسه قبل ذلك : لأنه كان يرى أنه إذا غمض عينيه أو حجبهما بشىء لا يبصر شيئاً حتى يزول ذلك العائق ، وكذلك كان يرى أنه إذا أدخل إصبعيه فى أذنيه وسدهما لا يسمع شيئاً حتى يزول ذلك العارض ، وإذا أمسك أنفه بيده لا يشم شيئاً من الروائح حتى يفتح أنفه . فاعتقد من أجل ذلك أن جميع ما له من الإدراكات والأفعال قد تكون لها عوائق تعوقها ، فإذا أزيلت تلك العوائق عادت الأفعال .

فلما نظر إلى جميع أعضائها الظاهرة ولم ير فيها آفة ظاهرة - وكان يرى مع ذلك العطلة قد شملتها ولم يختص بها عضو دون عضو - وقع

فى خاطره أن الآفة التى نزلت بها ، إنما هى عضو غائب عن العيان ، مستكن فى باطن الجسد ، وإن ذلك العضو لا يغنى عنه فى فعله شىء من هذه الأعضاء الظاهرة . فلما نزلت به الآفة عمت المضرة ، وشملت العطلة ، وطمع لو أنه عثر على ذلك العضو وأزال عنه ما نزل له ، لاستقامت أحواله وفاض على سائر البدن نفعه ، وعادت الأفعال إلى ما كانت عليه .

وكان قد شاهد قبل ذلك فى الأشباح الميتة من الوحوش وسواها أن جميع أعضائها مصمتة لا تجويف فيها إلا القحف ، والصدر ، والبطن . فوقع فى نفسه أن العضو الذى بتلك الصفة لن يعدو أحد هذه المواضع الثلاثة ، وكان يغلب على ظنه غلبة قوية أنه إنما هو فى الموضع المتوسط من هذه المواضع الثلاثة ، إذ استقر فى نفسه أن جميع الأعضاء محتاجة إليه ، وأن الواجب بحسب ذلك أن يكون مسكنه فى الوسط . وكان أيضاً إذا رجع إلى ذاته ، شعر بمثل هذا العضو فى صدره ، لأنه كان يعترض سائر أعضائه كاليد ، والرجل ، والأذن ، والأنف ، والعين ويقدر مفارقتها ، فيتأتى له أنه كان يستغنى عنها ، وكان يقدر فى رأسه مثل ذلك ويظن أنه يستغنى عنه ، فإذا فكر فى الشىء الذى يجده فى صدره ، لم يتأت له الاستغناء عنه طرفة عين . وكذلك كان عند محاربته للوحوش أكثر ما كان يتقى من صياصيهم على صدره ، لشعوره بالشىء الذى فيه .

فلما جزم الحكم بأن العضو الذى نزلت به الآفة إنما هو فى صدرها ، أجمع على البحث عليه والتنقير عنه ، لعله يظفر به ، ويرى آفته فيزيلها ثم إنه خاف أن يكون نفس فعله هذا أعظم من الآفة التى نزلت بها أولاً فيكون سعيه عليها .

ثم إنه تفكر : هل رأى من الوحوش وسواها ، من صار فى مثل تلك الحال ، ثم عاد إلى مثل حاله الأول ؟ فلم يجد شيئاً ! فحصل له من ذلك ، اليأس من رجوعها إلى حالها الأولى إن هو تركها ، وبقى له بعض رجاء فى رجوعها إلى تلك الحال إن هو وجد ذلك العضو وأزال الآفة عنه .

✿

فعزم على شق صدرها وتفتيش ما فيه ، فاتخذ من كسور الأحجار الصلدة وشقوق القصب اليابسة ، أشباه السكاكين ، وشق بها بين أضلاعها حتى قطع اللحم الذى بين الأضلاع ، وأفضى إلى الحجاب المستبطن للأضلاع فرآه قوياً ، فقوى ظنه بأن مثل ذلك الحجاب لا يكون إلا لمثل ذلك العضو وطمع بأنه إذا تجاوزه ألفى مطلوبه فحاول شقه ، فصعب عليه ، لعدم الآلات ، ولأنها لم تكن إلا من الحجارة والقصب ، فاستجدها ثانية واستحدها وتلطف فى خرق الحجاب حتى انخرق له ، فأفضى إلى الرئة فظن أولاً أنها مطلوبة ، فما زال يقلبها ويطلب موضع الآفة بها .

وكان أولاً إنما وجد نصفها الذى هو فى الجانب الواحد . فلما رآها مائلة إلى جهة واحدة ، وكان قد اعتقد أن ذلك العضو لا يكون إلا فى الوسط فى عرض البدن ، كما هو فى الوسط فى طوله . فمازال يفتش فى وسط الصدر حتى ألفى «القلب» وهو مجلل بغشاه فى غاية القوة مربوط بعلائق فى غاية الوثاقة ، والرئة مطيفة به من الجهة التى بدأ بالشق منها ، فقال فى نفسه : « إن كان لهذا العضو من الجهة الأخرى مثل ما له من هذه الجهة فهو فى حقيقة الوسط ، ولا محالة أنه مطلوبى . لاسيما مع ما أرى له من حسن الوضع ، وجمال الشكل ، وقلة التشتت ، وقوة اللحم ، وأنه محجوب بمثل هذا الحجاب الذى لم أر مثله لشىء من الأعضاء .

فبحث عن الجانب الآخر من الصدر ، فوجد فيه الحجاب المستبطن للأضلاع ، ووجد الرئة كمثل ما وجده من هذه الجهة . فحكم بأن ذلك العضو هو مطلوبه ، فحاول هتك حجابه ، وشق شغافه ، فبكد واستكراه ما ، قدر على ذلك ، بعد استفراغ مجهوده .

وجرَّد القلب فرآه مصمتاً من كل جهة ، فنظر هل يرى فيه آفة ظاهرة ؟ فلم ير فيه شيئاً ! فشد عليه يده ، فتبين له أن فيه تجويفاً ، فقال :

« لعل مطلوبى الأقصى إنما هو فى داخل هذا العضو ، وأنا حتى الآن لم أصل إليه » .

فشق عليه ، فالفى فيه تجويفين اثنين أحدهما من الجهة اليمنى والآخر من الجهة اليسرى ، والذى من الجهة اليمنى مملوء بعلق منعقد ، والذى من الجهة اليسرى خال لاشىء فيه . فقال :

« لن يعدو مطلوبى أن يكون مسكنه أحد هذين البيتين» . ثم قال :

«أما هذا البيت الأيمن ، فلا أرى فيه غير هذا الدم المنعقد . ولاشك أنه لم ينعقد حتى بصار الجسد كله إلى هذا الحال - إذ كان قد شاهد أن الدماء متى سالت وخرجت إنعقدت وجمدت ولم يكن هذا إلا دماً كسائر الدماء - وأنا أرى أن هذا الدم موجود فى سائر الأعضاء لا يختص به عضو دون آخر ، وأنا ليس مطلوبى شيئاً بهذه الصفة إنما مطلوبى الشىء الذى يختص به هذا الموضع الذى أجدنى لا أستغنى عنه طرفة عين ، وإليه كان انبعاثى من أول . وأما هذا الدم فكم مرة جرحتنى الوحوش فى المحاربة فسال منى كثير منه فما ضرنى ذلك ولا أفقدنى شيئاً من أفعالى ، فهذا بيت ليس فيه مطلوبى . وأما هذا البيت الأيسر فأراه خالياً لا شىء فيه ، وما أرى ذلك لباطل ، فإنى رأيت كل عضو من الأعضاء إنما هو لفعل يختص به ، فكيف يكون هذا البيت على ما شاهدت من شرفه باطلاً ؟ ما أرى إلا أن مطلوبى كان فيه ! فارتحل عنه وأخلاه . وعند ذلك ، طرأ على هذا الجسد من العطلة ما طرأ ، ففقد الإدراك وعدم الحراك » .

فلما رأى أن الساكن فى ذلك البيت قد ارتحل قبل انهدامه وتركه وهو

بحاله ، تحقق أنه أحرى أن لا يعود إليه بعد أن حدث فيه من الخراب والتخريق ما حدث . فصار عنده الجسد كله خسيساً لا قدر له بالإضافة إلى ذلك الشيء الذى اعتقد في نفسه أنه يسكنه مدة ويرحل عنه بعد ذلك . فاقتصر على الفكرة فى ذلك الشيء ما هو ؟ وكيف هو ؟ وما الذى ربطه بهذا الجسد ؟ وإلى أين صار ؟ ومن أى الأبواب خرج عند خروجه من الجسد ؟ وما السبب الذى أزعجه إن كان خرج كارهاً ؟ وما السبب الذى كره إليه الجسد ، حتى فارقه إن كان خرج مختاراً ؟

❁

وتشتت فكره فى ذلك كله ، وسلا عن ذلك الجسد وطرحه ، وعلم أن أمه التى عطفت عليه وأرضعته ، إنما كانت ذلك الشيء المرتحل ، وعنه كانت تصدر تلك الأفعال كلها ، لا هذا الجسد العاطل ، وأن هذا الجسد بجملته ، إنما هو كالآلة وبمنزلة العصي التى اتخذها هو لقتال الوحوش . فانتقلت علاقته عن الجسد إلى صاحب الجسد ومحركه ، ولم يبق له شوق إلا إليه .

وفى خلال ذلك نتن ذلك الجسد ، وقامت منه روائح كريهة ، فزادت نفرته عنه ، وود أن لا يراه ثم إنه سنح لنظره غرابان يقتتلان حتى صرع أحدهما الآخر ميتاً . ثم جعل الحى يبحث فى الأرض حتى حفر حفرة فوارى فيها ذلك الميت بالتراب فقال فى نفسه : «ما أحسن ما صنع هذا الغراب فى مواراة جيفة صاحبه وإن كان قد أساء فى قتله إياه ! وأنا

كنت أحق بالاهتداء إلى هذا الفعل بأمي ! » فحفر حفرة وألقى فيها جسد أمه ، وحثا عليها التراب .

وبقى يتفكر فى ذلك الشيء المصرف للجسد ولا يدرى ما هو ! غير أنه كان ينظر إلى أشخاص الظباء كلها ، فيراها على شكل أمه ، وعلى صورتها ، فكان يغلب على ظنه ، أن كل واحد منها إنما يحركه ويصرفه شيء هو مثل الشيء الذى كان يحرّك أمه ويصرفها ، فكان يألف الظباء ويحن إليها لمكان ذلك الشبه .

وبقى على ذلك برهة من الزمن ، يتصفح أنواع الحيوان والنبات ، ويطوف بساحل تلك الجزيرة ، ويتطلب هل يرى أو يجد لنفسه شبيهاً حسبما يرى لكل واحد من أشخاص الحيوان والنبات أشباهاً كثيرة ، فلا يجد شيئاً من ذلك . وكان يرى البحر قد أحدق بالجزيرة من كل جهة ، فيعتقد أنه ليس فى الوجود أرض سوى جزيرته تلك .

-٤-

واتفق فى بعض الأحيان أن انقدحت نار فى أجمة قلخ(*) على سبيل المحاكة . فلما بصر بها رأى منظراً هـاله ، وخلقاً لم يعهده قبل ، موقف يتعجب منهـا ملياً ، وما زال يدنو منها شيـئاً فشيئـاً ، فرأى ما للنار من الـضـوء الشـاقب والفـعل الغـالب حـتى لا تعلق بشىء إلا أتت عليـه وأحـالته إلى نفسـها ، فحمله ، العجـب بها ، وبما ركب الله تعالى فى طباعـه من الجراءة والقوة ، على أن يمـد يده إليها ، وأراد أن يأخـذ منها شيئاً .

فلما باشـرها أحرقت يده فلم يستطع القـبض عليها فـاهتدى إلى أن يأخذ قبـساً لم تستول النار على جـميعه ، فأخـذ بطرفه السليم والنار فى طرفه الآخر ، فتأتى له ذلك وحملـه إلى موضعه الذى كان يأوى إليه - وكان خلا فى جحر استحسنه للسكنى قبل ذلك .

ثم مازال يمد تلك النار بالحشيش والحطب الجزل ، ويتعهدها ليلاً !

(*) القصب الأجوف .

ونهاراً ، استحساناً لها وتعجباً منها . وكان يزيد أنسه بها ليلاً ، لأنها كانت تقوم له مقام الشمس فى الضياء والدفء ، فعظم بهـا ولوعه ، واعتقد أنها أفضل الأشياء التى لديه : وكان دائماً يراها تتحرك إلى جهة فوق وتطلب العلو ، فغلب على ظنه أنها من جملة الجواهر السماوية التى كان يشاهدها .

وكان يختبر قوتها فى جميع الأشياء بأن يلقيها فيها ، فيراها مستولية عليها إما بسرعة وإما ببطء بحسب قوة استعداد الجسم الذى كان يلقيه للاحتراق أو ضعفه .

وكان من جملة ما ألقى فيها على سبيل الاختبار لقوتها ، شىء من أصناف الحيوانات البحرية - كان قد ألقاه البحر إلى ساحله - فلما أنضجت ذلك الحيوان وسطع قُتاره(*) تحركت شهوته إليه ، فأكل منه شيئاً فاستطابه ، فاعتاد بذلك أكل اللحم ، فصرف الحيلة فى صيد البر والبحر ، حتى مهر فى ذلك .

وزادت محبته للنار ، إذ تأتى له بها من وجوه الاغتذاء الطيّب شىء لم يتأت له قبل ذلك . فلما اشتد شغفه بها لما رأى من حسن آثارها وقوة اقتدارها ، وقع فى نفسه أن الشىء الذى ارتحل من قلب أمه الظبية التى أنشأته ، كان من جوهر هذا الموجود أو من شىء يجانسه ، وأكد ذلك فى ظنه ، ما كان يراه من حرارة الحيوان طول مدة حياته ، وبرودته من

(*) رائحة الشواء .

بعد موته ، وكل هذا دائم لا يختل ، وما كان يجده فى نفسه من شدة الحرارة عند صدره ، بإزاء الموضع الذى كان قد شق عليه من الظبية ، فوقع فى نفسه أنه لو أخذ حيواناً حياً وشق قلبه ونظر إلى ذلك التجويف الذى صادفه خالياً عندما شق عليه فى أمة الظبية ، لرآه فى هذا الحيوان الحى وهو مملوء بذلك الشىء الساكن فيه وتحقق هل هو من جوهر النار ؟ وهل فيه شىء من الضوء والحرارة ، أم لا ؟

فعمد إلى بعض الوحوش واستوثق منه كتافاً وشقه على الصفة التى شق بها الظبية حتى وصل إلى القلب . فقصد أولاً إلى الجهة اليسرى منه وشقها ، فرأى ذلك الفراغ مملوءاً بهواء بخارى ، يشبه الضباب الأبيض ، فأدخل إصبعه فيه ، فوجده من الحرارة فى حد كاد يحرقه ، ومات ذلك الحيوان على الفور . فصح عنده أن ذلك البخار الحار هو الذى كان يحرك هذا الحيوان ، وأن فى كل شخص من أشخاص الحيوانات مثل ذلك ، ومتى انفصل عن الحيوان مات .



ثم تحركت فى نفسه الشهوة للبحث عن سائر أعضاء الحيوان وترتيبها وأوضاعها وكمياتها وكيفية ارتباط بعضها ببعض ، وكيف تستمد من هذا البخار الحار حتى تستمر لها الحياة به ، وكيف بقاء هذا البخار المدة التى يبقى ، ومن أين يستمد ، وكيف لا تنفذ حرارته ؟ فتتبع ذلك كله بتشريح الحيوانات الأحياء والأموات ، ولم يزل ينعم النظر فيها

ويجيد الفكرة ، حتى بلغ فى ذلك كله مبلغ كبار الطبيعيين ، فتبين له أن كل شخص من أشخاص الحيوان ، وإن كان كثيراً بأعضائه وتفنن حواسه وحركاته ، فإنه واحد بذلك الروح الذى مبدؤه من قرار واحد ، وانقسامه فى سائر الأعضاء منبعث منه . وأن جميع الأعضاء إنما هى خادمة له ، أو مؤدية عنه ، وأن منزلة ذلك الروح فى تصريف الجسد ، كمنزلة من يحارب الأعداء بالسلاح التام، ويصيد جميع صيد البحر والبر، فيمد لكل جنس آلة يصيده بها والتى يحارب بها تنقسم : إلى ما يدفع به نكيلة غيره، وإلى ما ينكى بها غيره . وكذلك الات الصيد تنقسم : إلى ما يصلح لحيوان البحر، وإلى ما يصلح لحيوان البر، وكذلك الأشياء التى يشرح بها تنقسم : إلى ما يصلح للشق ، وإلى ما يصلح للكسر ، وإلى ما يصلح للثقب ، والبدن واحد ، وهو يصرف ذلك أنحاء من التصريف بحسب ماتصلح له كل آلة ، وبحسب الغايات التى تلتمس بذلك التصرف .

كذلك ؛ ذلك الروح الحيوانى واحد ، وإذا عمل بآلة العين كان فعله ابصاراً ، وإذا عمل بآلة الأذن كان فعله سمعاً ، وإذا عمل بآلة الأنف كان فعله شماً ، وإذا عمل بآلة اللسان كان فعله ذوقاً ، وإذا عمل بالجلد واللحم كان فعله لمساً ، وإذا عمل بالعضد كان فعله حركة ، وإذا عمل بالكبد كان فعله غذاء واغتذاء .

ولكل واحد من هذه ، أعضاء تخدمه . ولا يتم لشىء من هذه فعل إلا بما يصل إليها من ذلك الروح ، على الطرق التى تسمى عصباً .

ومتى انقطعت تلك الطرق أو انسدت ، تعطل فعل ذلك العضو . وهذه الأعصاب إنما تستمد الروح من بطون الدماغ ، والدماغ يستمد الروح من القلب ، والدماغ فيه أرواح كثيرة ، لأنه موضع تتوزع فيه أقسام كثيرة : فأى عضو عدم هذا الروح بسبب من الأسباب تعطل فعله وصار بمنزلة الآلة المطرحة ، التى لا يصرفها الفاعل ولا ينتفع بها . فإن خرج هذا الروح بجملته عن الجسد ، أو فنى ، أو تحلل بوجه من الوجوه ، تعطل الجسد كله ، وصار إلى حالة الموت ، فانتهى به هذا النحو من النظر إلى هذا الحد من النظر على رأس ثلاثة أسابيع من منشئه ، وذلك أحد وعشرون عاماً .

وفى خلال هذه المدة المذكورة تفنن فى وجوه حيله ، واكتسى بجلود الحيوانات التى كان يشرحها ، واحتذى بها ، واتخذ الخيوط من الأشعار ولحا قصب الخطمية(*) والخبارى والقنب ، وكل نبات ذى خيط .

وكان أصل اهتدائه إلى ذلك ، أنه أخذ من الحلفاء وعمل خطاطيف من الشوك القوى والقصب المحدد على الحجارة .

واهتدى إلى البناء بما رأى من فعل الخطاطيف فاتخذ مخزناً وبيتاً لفضله غذائه ، وحصن عليه بباب من القصب المربوط بعضه إلى بعض ، لئلا يصل إليه شىء من الحيوانات عند مغيبة عن تلك الجهة فى بعض شؤونه .

(*) تكتب أيضاً (الختمية) .

واستألـف جوارح الطير ليستعين بها فى الصيـد ، واتخذ الدواجن لينتفع ببيـضها وفـراخها ، واتخذ من صيـاصى البقـر الوحشية شبـه الأسنة ، وركبهـا فى القـصب القـوى ، وفى عصـى الزان وغيـرها ، واستعان فى ذلك بالنار وبحروف الحجـارة ، حتى صارت شبه الرماح ، واتخذ ترسـه من جلود مضاعـفة : كل ذلك لما رأى من عدمـه السلاح الطبيعى .

ولما رأى أن يده تفى له بكل مـا فـاته من ذلك ، وكـان لا يقاومـه شىء من الحيوانات على اختلاف أنواعها ، إلا أنها كانت تفر عنه فتعجزه هرباً ، فكر فى وجه الحـيلة فى ذلك ، فلم ير شيـئاً أنجع(*) له من أن يتألف بعض الحيوانات الشديدة العـدو ، ويحسن إليها بإعداد الغذاء الذى يصلح لها ، حـتى يتأتى له الركـوب عليها ومطاردة سـائر الأصناف بها وكان بتلك الجزيرة خيل برية وحمر وحشية ، فاتخذ منها ما يصلح له ، وراضها حتى كمل له بها غرضه ، وعمل عليها من الشرك والجلود أمثال الشكائم والسروج فتأتى له بذلك مـا أمله من طرد الحيوانات التى صعبت عليه الحيلة فى أخذها .

وإنما تفنن فى هذه الأمور كلها فى وقت اشتغـاله التشريح ، وشهوته فى وقوفه على خصائص أعضاء الحيوان ، وبماذا تختلف ، وذلك فى المدة التى حددنا منتهاها بأحد وعشرين عاماً .

(*) فى بعض الطبعات : الجح .

-٥-

ثم أنه بعد ذلك أخذ فى مأخذ أخر من النظر ، فتصفح جميع الأجسام التى فى عالم الكون والفساد : من الحيوانات على اختلاف أنواعها ، والنبات والمعادن وأصناف الحجارة والتراب والماء والبخار والثلج والبرد ، والدخان واللهيب والجمر ، فرأى لها أوصافاً كثيرة وأفعالاً مختلفة ، وحركات متفقة ومتضادة ، وأنعم النظر فى ذلك والتثبت ، فرأى أنها تتفق ببعض الصفات وتختلف ببعض ، وأنها من الجهة التى تتفق بها واحدة ، ومن الجهة التى تختلف فيها متغايرة ومتكثرة فكان تارة ينظر خصائص الأشياء وما يتفرد به بعضها عن بعض ، فتكثر عنده كثرة تخرج عن الحصر ، وينتشر له الوجود انتشاراً لا يضبط .

❁

وكانت تتكثر عنده أيضاً ذاته ، لأنه كان ينظر إلى اختلاف أعضائه ، وأن كل واحد منها منفرد بفعل وصفة تخصه ، وكان ينظر كل

عضو منها فيرى أنه يحتمل القسمة إلى أجزاء كثيرة جداً ، فيحكم على ذاته بالكثرة ، وكذلك على ذات كل شيء . ثم كان يرجع إلى نظر آخر من طريق ثان ، فيرى أن أعضاءه ، وإن كانت كثيرة فهي متصلة كلها بعضها ببعض ، لا انفصال بينها بوجه ، فهي في حكم الواحد ، وأنها لا تختلف إلا بحسب اختلاف أفعالها ، وأن ذلك الاختلاف إنما هو بسبب ما يصل إليها من قوة الروح الحيواني ، الذي انتهى إليه نظره أولاً ، وأن ذلك الروح واحد في ذاته ، وهو حقيقة الذات ، وسائر الأعضاء كلها كالآلات ، فكانت تتحد عنده ذاته بهذا الطريق .

❁

ثم كان ينتقل إلى جميع أنواع الحيوان ، فيرى كل شخص منها واحداً بهذا النوع من النظر . ثم كان ينظر إلى نوع منها : كالظباء والخيل والحمر وأصناف الطير صنفاً صنفاً ، فكان يرى أشخاص كل نوع يشبه بعضه بعضاً في الأعضاء الظاهرة والباطنة والإدراكات والحركات والمنازع ، ولا يرى بينها اختلافاً إلا في أشياء يسيرة بالإضافة إلى ما اتفقت فيه . وكان يحكم بأن الروح الذي لجميع ذلك النوع شيء واحد، وأنه لم يختلف إلا أنه انقسم على قلوب كثيرة ، وأنه لو أمكن أن يجمع جميع الذي افترق في تلك القلوب منه ويجعل في وعاء واحد ، لكان كله شيئاً واحداً ، بمنزلة ماء واحد ، أو شراب واحد ، يفرق على أوان كثيرة ، ثم يجمع بعد ذلك . فهو في حالتي تفريقه وجمعه شيء واحد ، إنما

عـرض له التكثر بوجـه ما ، فكان يـرى النوع كله بهذا النظر واحـداً ، ويجعل كثـرة أشخاصه بمنزلة كـثيرة أعضاء الشـخص الواحد ، التى لم تكن كثرة فى الحقيقة .

❁

ثم كان يحضر أنواع الحيوان كلها فى نفـسه ويتأملها فيراها تتفق فى أنها تحس ، وتغتذى ، وتتحـرك بالإرادة إلى أى جهة شاءت ، وكان قد علم أن هذه الأفعال هى أخص أفعال الروح الحيوانى ، وأن سائر الأشياء التى تختـلف بها بعد هذا الاتفـاق ، ليست شـديدة الاختـصاص بالروح الحيوانى . فظهر له بهذا التـأمل ، أن الروح الحيوانى الذى لجميع جنس الحيـوان واحد بالحـقـيقة ، وإن كان فيه اختـلاف يسير ، اختص به نوع دون نـوع : بمـنزلة ماء واحد مـقسوم على أوان كثيـرة ، بعضه أبرد من بعـض . وهو فى أصله واحد وكل ما كان فى طبـقة واحدة من البرود ، فهـو بمنزلة اخـتصاص ذلك الروح الحيـوانى بنوع واحـد ، وإن عرض له التكثر بوجـه ما . فكـان يـرى جـنس الحيوان كله واحـداً بهذا النوع من النظر .

ثم كان يرجع إلى أنواع النبات على اختلافـها . فيرى كل نوع منها تشبه أشخـاصه بعضها بعضاً فى الأغـصان ، والورق ، والزهر والثمر ، والأفعال ؛ فكان يقيـسها بالحيوان ، ويعلم أن لها شيئـاً واحداً اشتركت فيه : هو لهـا بمنزلة الروح للحيوان وأنها بذلـك الشيء واحد . وكذلك

كان ينظر إلى جنس النبات كله ، فيحكم باتحاده بحسب ما يراه من اتفاق فعله فى أنه يتغذى وينمو .

❁

ثم كان يجمع فى نفسه جنس الحيوان وجنس النبات ، فيراهما جميعاً متفقين فى الاغتذاء والنمو ، إلا أن الحيوان يزيد على النبات ، بفضل الحس والإدراك والتحرك ؛ وربما ظهر فى النبات شىء شبيه به ، مثل تحول وجوه الزهر إلى جهة الشمس ، وتحرك عروقه إلى جهة الغذاء، وأشباه ذلك ، فظهر له بهذا التأمل أن النبات والحيوان شىء واحد ، بسبب شىء واحد مشترك بينهما ، هو فى أحدهما أتم وأكمل ، وفى الآخر قد عاقه عائق ما ، وأن ذلك بمنزلة ماء واحد قسم بقسمين ، أحدهما جامد والآخر سيال ، فيتحد عنده النبات والحيوان .

❁

ثم ينظر إلى الأجسام التى لا تحس ولا تغتذى ولا تنمو ، من الحجارة ، والتراب ، والماء ، والهواء ، واللهب ، فيرى أنها أجسام مقدرة لها طول وعرض وعمق وأنها لا تختلف ، إلا أن بعضها ذو لون وبعضها لا لون له وبعضها حار وبعضها بارد ، ونحو ذلك من الاختلافات وكان يرى أن الحار منعها يصير بارداً ، والبارد يصير حاراً ، وكان يري الماء يصير بخاراً والبخار ماء ، والأشياء المحترقة تصير جمراً ، ورماداً ، ولهيباً ، ودخانا ، والدخان إذا وافق فى صعوده قبة حجر انعقد

فيـه وصار بمنزلة سائر الأشـياء الأرضيـة ، فيظهر له بهـذا التأمل ، أن جميعـها شيء واحد في الحقيقـة ، وإن لحقتها الكثرة بوجـه ما ، فذلك مثل ما لحقت الكثرة للحيوان والنبات .

❁

ثم ينظر إلى الشيء الذى اتحد به عنده النبات والحـيوان ، فيرى أنه جسم ما مثل هذه الأجسام : لـه طول وعرض وعمق ، وهو إما حار وإما بارد ، كواحد من هذه الأجـسام التى لا تحس ولا تتغذى ، وإنما خـالفها بأفعـاله التى تظهر عنه بالآلات الحيـوانية والنباتية لا غـير ، ولعل تلك الأفعال ليست ذاتية ، وإنما تسـرى إليه من شيء آخر ولو سرت إلى هذه الأجسـام الأُخر ، لكـانت مثله ، فكان ينظر إليـه بذاته مجـرداً عن هذه الأفعـال ، التى تظهر ببـادئ الرأى ، أنها صـادرة عنه ، فكان يرى أنه ليس إلا جسمـاً من هذه الأجسام ، فيظهر له بهذا التـأمل ، أن الأجسام كلها شيء واحد : حيـها وجمادها ، متحركهـا وساكنها ، إلا أنه يظهر أن لبعـضها أفـعالاً بآلات ، ولا يدرى هل تلك الأفعـال ذاتية لهـا ، أو سارية إليها من غيرها . وكان فى هذه الحـالة لا يرى شيئاً غير الأجـسام فكان بهـذا الطريق يرى الوجـود كله شيـئاً واحـداً ، وبالنظر الأول يرى الوجود كثرة لا تنـحصر ولا تتناهى . وبقى بحكم هذه الحالة مدة .

❁

ثم إنه تأمل جميع الأجسام حيًّا وجمادها . وهى التى هى عنده تارة شىء واحد وتارة كثيرة كثرة لا نهاية لها ، فرأى أن كل واحد منها ، لا يخلو من أحد أمرين : إما أن يتحرك إلى جهة العلو مثل الدخان واللهيب والهواء ، إذا حصل تحت الماء وإما أن يتحرك إلى الجهة المضادة لتلك الجهة ، وهى جهة السفل ، مثل الماء ، وأجزاء الأرض ، وأجزاء الحيوان والنبات ، وأن كل جسم من هذه الأجسام لن يعرى عن إحدى هاتين الحركتين وأنه لا يسكن إلا إذا منعه مانع يعوقه عن طريقه ، مثل الحجر النازل يصادف وجه الأرض صلباً ، فلا يمكن أن يخرقه ، ولو أمكنه ذلك لما انثنى عن حركته فيما يظهر ، ولذلك إذا رفعته ، وجدته يتحامل عليك بميله إلى جهة السفل ، طالباً للنزول . وكذلك الدخان فى صعوده ، لا ينثنى إلا أن يصادف قبة صلبة تحبسه ، فحينئذ ينعطف يميناً وشمالاً ثم إذا تخلص من تلك القبة ، خرق الهواء صاعداً لأن الهواء لا يمكنه أن يحبسه .

وكان يرى أن الهواء إذا ملىء به زق جلد ، وربط ثم غوص تحت الماء طلب الصعود وتحامل على من يمسكه تحت الماء ، ولا يزال يفعل ذلك حتى يوافى موضع الهواء ، وذلك بخروج من تحت الماء فحينئذ يسكن ويزول عنه ذلك التحامل والميل إلى جهة العلو الذى كان يوجد منه قبل ذلك .

ونظر هل يجد جسماً يعرى عن إحدى هاتين الحركتين أو الميل إلى

احداهما فى وقت ما ؟ فلم يجد ذلك فى الأجسام التى لديه ، وإنما طلب ذلك ، لأنه طمع أن يجده ، فيرى طبيعة الجسم من حيث هو جسم ، دون أن يقترن به وصف من الأوصاف ، التى هى منشأ التكثر .

فلما أعياه ذلك ونظر إلى الأجسام التى هى أقل الأجسام حملاً للأوصاف فلم يرها تعرى عن أحدى هذين الوصفين بوجه ، وهما اللذان يعبر عنهما بالثقل والخفة فنظر إلى الثقل والخفة ، هل هما للجسم من حيث هو جسم ؟ أو هما لمعنى زائد على الجسمية ؟ فظهر له أنهما لمعنى زائد على الجسمية لأنهما لو كانا للجسم من حيث هو جسم ، لما وجد جسم إلا وهما له . ونحن نجد الثقيل لا توجد فيه الخفة ، والخفيف لا يوجد فيه الثقل ، وهما لا محالة جسمان ولكل واحد منهما معنى منفرد به عن الآخر زائد على جسميته . وذلك المعنى ، الذى به غاير كل واحد منهما الآخر ، ولولا ذلك لكانا شيئاً واحداً من جميع الوجوه .

فتبين له أن حقيقة كل واحد من الثقيل والخفيف ، مركبة من معنيين أحدهما ما يقع فيه الاشتراك منهما جميعاً ، وهو معنى الجسمية ؛ والآخر ما تنفرد به حقيقة كل واحد منهما على الآخر ، وهما إما الثقل فى أحدهما ، وإما الخفة فى الآخر ، المقترنان بمعنى الجسمية ، أى المعنى الذى يحرك أحدهما علواً ، والآخر سفلا .

وكذلك نظر إلى سائر الأجسام من الجمادات والأحياء ، فرأى أن حقيقة وجود كل واحد منهما مركبة من معنى الجسمية ، ومن شىء آخر

زائد على الجسمية : إما واحد ، وإما أكثر من واحد ؛ فلاحت له صور الأجسام على اختلافها وهو أول مالاح له من العالم الروحانى ، إذ هى صور لا تدرك بالحس ، وإنما تدرك بضرب ما من النظر العقلى . ولاح له فى جملة مالاح من ذلك ، أن الروح الحيوانى الذى مسكنه القلب - وهو الذى تقدم شرحه أولاً - لابد له أيضاً من معنى زائد على جسميته يصلح بذلك المعنى لأن يعمل هذه الأعمال الغريبة ، التى تختص به من ضروب الإحساسات ، وفنون الإدراكات وأصناف الحركات ، وذلك المعنى هو صورته وفصله الذى انفصل به عن سائر الأجسام ، وهو الذى يعبر عنه النظار بالنفس الحيوانية .

وكذلك أيضاً للشىء الذى يقوم للنبات مقام الحار الغريزي للحيوان ، شيء يخصه هو صورته ، وهو الذى يعبر عنه النظار بالنفس النباتية . وكذلك لجميع أجسام الجمادات : وهى ما عدا الحيوان والنبات مما فى عالم الكون والفساد شىء يخصها به ، يفعل كل واحد منها فعله الذى يختص به مثل صنوف الحركات وضروب الكيفيات المحسوسة عنها ، وذلك الشىء هو صورة كل واحد منها ، وهو الذى يعبر النظار عنه بالطبيعة .

فلما وقف بهذا النظر على أن حقيقة الروح الحيواني ، الذى كان تشوقه إليه أبداً ، مركبة من معنى آخر زائد على الجسمية ، وأن معنى هذه الجسمية مشترك ، ولسائر الأجسام ، والمعنى الآخر المقترن به ينفرد

به هو وحده ، هان عنده معنى الجسمية فاطرحه ، وتعلق فكره بالمعنى الثانى ، وهو الذى يعبر عنه بالنفس ؛ فتشوق إلى التحقق به فالتزم الفكرة فيه ، وجعل مبدأ النظر فى ذلك تصفح الأجسام كلها ، لا من جهة ما هى أجسام ، بل من جهة ما هى ذوات صور تلزم عنها خواص ، ينفصل بها بعضها عن بعض ، فتتبع ذلك وحصره فى نفسه ، فرأى جملة من الأجسام ، تشترك فى صورة ما يصدر عنها فعل ما ، أو أفعال ما ، ورأى فريقاً من تلك الجملة ، مع أنه يشارك الجملة بتلك الصورة ، يزيد عليها بصورة أخرى ، يصدر عنها أفعال ما ، ورأى طائفة من ذلك الفريق ، مع أنها تشارك الفريق فى الصورة الأولى والثانية ، تزيد عليه بصورة ثالثة ، تصدر عنها أفعال ما خاصة بها . مثال ذلك : أن الأجسام الأرضية ، مثل التراب والحجارة والمعادن والنبات والحيوان ، وسائر الأجسام الثقيلة ، هى جملة واحدة تشترك فى صورة واحدة تصدر عنها الحركة إلى أسفل ، ما لم يعقها عائق عن النزول : ومتى تحركت إلى جهة العلو بالقسر ثم تركت ، تحركت بصورتها إلى أسفل . وفريق من هذه الجملة ، وهو النبات والحيوان ، مع مشاركة الجملة المتقدمة فى تلك الصورة ، يزيد عليها صورة أخرى ، يصدر عنها التغذى والنمو .

والتغذى : هو أن يخلف المتغذى ، بدل ما تحلل منه ، بأن يحيل إلى التشبه بجوهره مادة قريبة منه ، يجتذبها إلى نفسه .

والنمو : هو الحركة فى الأقطار الثلاثة ، على نسبة محفوظة فى الطول والعرض والعمق

فهذان الفعلان عَامان للنبات والحيوان ، وهما لا محالة صادران عن صورة مشتركة لهما ، وهى المعبر عنها بالنفس النباتية .

وطائفة من هذا الفريق ، وهو الحيوان خاصة ، مع مشاركته الفريق المتقدم فى الصورة الأولى والثانية ، تزيد عليه بصورة ثالثة ، يصدر عنها الحس والتنقل من حين إلى آخر .

ورأى أيضا كل نوع من أنواع الحيوان ، له خاصية ينحاز بها عن سائر الأنواع ، وينفصل بها متميزاً عنها . فعلم أن ذلك صادر عن صورة له تخصه هى زائدة عن معنى الصورة المشتركة له ولسائر الحيوان ، وكذلك لكل واحد من أنواع النبات مثل ذلك . فتبين له أن الأجسام المحسوسة التى فى عالم الكون والفساد ، بعضها تلتئم حقيقته من معان كثيرة ، زائدة على معنى الجسمية ، وبعضها من معان أقل ؛ وعلم أن معرفة الأقل أسهل من معرفة الأكثر ؛ فطلب أولاً الوقوف على حقيقة الشىء الذى تلتئم حقيقته من أقل الأشياء ، ورأى أن الحيوان والنبات ، لا تلتئم حقائقها إلا من معان كثيرة ، لتفنن أفعالهما ؛ فأخر التفكر فى صورهما . وكذلك رأى أن أجزاء الأرض بعضها أبسط من بعض ، فقصد منها إلى أبسط ما قدر عليه وكذلك رأى أن الماء شىء قليل التركيب، لقلة ما يصدر عن صورته من الأفعال ، وكذلك رأى النار والهواء .

وكان قــد سبق إلى ظنه أولاً ، أن هذه الأربعة يســتحيل بعــضا إلى بعض ، وأن لها شيـئاً واحداً تشتــرك فيه ، وهو معنى الجســمية ، وأن ذلك الشيء ينبغي أن يكون خلواً من المعانى التــى تميز بها كل واحد من هذه الأربعة عن الآخر ، فلا يمكن أن يتـحرك إلى فوق ولا إلى أسفل ، ولا أن يكون حاراً ولا أن يكون بارداً ، ولا أن يكون رطباً ، ولا يابساً ، لأن كل واحد من هذه الأوصاف ، لا يعم جمـيع الأجسام ، فليست إذن للجـسم بما هو جسم . فـإذا أمكن وجود جـسم لا صورة فيـه زائدة على الجسمـية ، فليس تكون فيه صفـة من هذه الصفات ، ولا يمكن أن تكون فيه صفة إلا وهى تعم سائر الأجسام المتصورة ، بضروب الصور .

❁

فنظر هل يجد وصفاً واحداً يعم جميع الأجـسام : حيها وجمادها ، فلم يجد شيئاً يعم الأجسام كلها . إلا مـعنى الامتداد الموجود فى جميعها فى الأقطار الثلاثة ، التى يعبر عنها بالطول ، والعرض ، والعمق ، فعلم أن هذا المعنى هو للجسم من حيث هـو جسم ، لكنه لم يتأت له بالحس وجود جـسم بهذه الصـفة وحدها ، حـتى لا يكون فيه مـعنى زائد على الامتداد المذكور ويكون بالجملة خلواً من سائر الصور .

ثم تفكر فى هذا الامتداد إلى الأقطار الثـلاثة ، هل هو معنى الجسم بعينه ، وليس ثم مـعنى آخر أو ليس الأمر كـذلك ، فرأى أن وراء هذا الامتداد معنى آخر ، هو الذى يوجد فيه هذا الامتداد ، وأن الامتداد وحده

لا يمكن أن يقوم بنفسه كما أن ذلك الشيء الممتد ، لا يمكن أن يقوم دون امتداد .

واعتبر ذلك ببعض هذه الأجسام المحسوسة ذوات الصور ، كالطين مثلا ، فرأى أنه إذا عمل منه شكل ما كالكرة مثلا ، كان له طول وعرض وعمق على قدر ما . ثم إن تلك الكرة بعينها لو أخذت وردت إلى شكل مكعب أو بيضي ، لتبدل ذلك الطول وذلك العرض وذلك العمق ، وصارت على قدر آخر . غير الذى كانت عليه ، والطين واحد بعينه لم يتبدل ، غير أنه لابد له من طول وعرض وعمق على أى قدر كان ، ولا يمكن أن يعرى عنها ؛ غير أنها لتعاقبها عليه ، تبين له أنها معنى على حياله ؛ ولكونه لا يعرى بالجملة عنها ، تبين له أنها من حقيقته .

فلاح له بهذا الاعتبار ، أن الجسم ، بما هو جسم ، مركب على الحقيقة من معنين :

أحدهما : يقوم منه مقام الطين للكرة فى هذا المثال .

والآخر : يقوم مقام طول الكرة وعرضها وعمقها ، أو المكعب ، أو أى شكل كان له . وأنه لا يفهم الجسم إلا مركباً من هذين المعنين ، وأن أحدهما لا يستغنى عن الآخر . ولكن الذى يمكن أن يتبدل ويتعاقب على أوجه كثيرة ، وهو معنى الامتداد يشبه الصورة التى لسائر الأجسام ذوات الصور ، والذى يثبت على حال واحدة ، وهو الذى ينزل منزلة

الطين فى المثال المتقدم ، يشبه معنى الجسمية التى لسائر الأجسام ذوات الصور . وهذا الشيء الذى هو بمنزلة الطين فى هذا المثال هو الذى يسميه النظار المادة والهيولى وهى عارية عن الصورة جملة .

فلما انتهى نظره إلى هذا الحد ، وفارق المحسوس بعض مفارقة ، وأشرف على تخوم العالم العقلى ، استوحش وحن إلى ما ألفه من عالم الحس ، فتقهقر قليلاً وترك الجسم على الإطلاق ، إذ هو أمر لا يدركه الحس ، ولا يقدر على تناوله . فأخذ أبسط الأجسام المحسوسة التى شاهدها ، وهى تلك الأربعة التى كان قد وقف نظره عليها .

فأول ما نظر إلى الماء ، فرأى أنه إذا خلى وما تقتضيه صورته ، ظهر منه برد محسوس ، وطلب النزول إلى أسفل فإذا سخن إما بالنار وإما بحرارة الشمس ، زال عنه البرد أولاً وبقى فيه طلب النزول ، فإذا أفرط عليه بالتسخين ، زال عنه طلب النزول إلى أسفل . وصار يطلب الصعود إلى فوق . فزال عنه بالجملة الوصفان اللذان كانا أبداً يصدران عن صورته ، ولم يعرف من صورته أكثر من صدور هذين الفعلين عنها. فلما زال هذان الفعلان بطل حكم الصورة ، فزالت الصورة المائية عن ذلك الجسم عندما ظهرت منه أفعال من شأنها أن تصدر عن صورة أخرى ، وحدثت له صورة أخرى ، بعد أن لم تكن ، وصدر عنه بها أفعال لم يكن من شأنها أن تصدر عنه وهو بصورته الأولى .

فعلم بالضرورةِ أن كل حادث لابد له من محدث . فارتسم فى نفسه بهذا الاعتبار ، فاعل للصورة ، ارتساماً على العموم دون تفضيل .

ثم إنه تتبع الصورة التى كان قد عـاينها قبل ذلك ، صورة صورة ، فرأى أنها كلها حادثة ، وأنها لابد لها من فاعل . ثم إنه نظر إلى ذوات الصور ، فلم ير أنها شـىء أكثر من استعـداد الجسم لأن يصدر عنه ذلك الفعل ، مثـل الماء ، فإنه إذا أفرط عليه التـسخين ، استعد للـحركة إلى فوق وصلح لها . فذلك الاستعداد هو صورته ، إذ ليس ها هنا إلا جسم وأشيـاء تحس عنه ، بعد أن لم تكن ؛ فـصلوح الجسم لبعض الحـركات دون بعـض ، هـو اسـتعـداده بصورته ، ولاح له مـثل ذلك فى جمـيع الصور ، فتـبين له أن الأفعال الصادرة عنهـا ، ليست فى الحقيـقة لها ، وإنما هى لفاعل يفعل بها الأفعـال المنسوبة إليها ؛ وهذا المعنى الذى لاح له ، هو قول رسول الله ﷺ : « كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به »[٤٠] وفى مـحكم التنزيل : ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾[٤١] .

فلـمـا لاح له من أمـر هذا الـفاعل ، مـا لاح على الإجـمـال دون تفصيل ، حـدث له شوق حثيث إلى مـعرفته على التـفصيل ، ولأنه لم يكن بعـد فـارق عـالم الحس ، جـعل يطـلب هذا الفـاعل على جـهـة المحسوسات ، وهو لا يعلم بـعد هل هو واحد أو كثير ؟ فتـصفح جميع الأجسام التى لديه ، وهى التى كانت فكرته أبداً فيها ، فرآها كلها تتكون

تارة وتفسد أخـرى ، وما لـم يقف على فساد جملتـه ، وقف على فساد أجزائه مـثل الماء والأرض ، فإنه رأى أجزاءهمـا تفسـد بالنار ، وكذلك الهواء رآه يفسدَ بشدة البرد ، حتى يتكون منه ثلج فيسيل ماء .

وكذلكَ سائر الأجسام التى كانت لديه ، ولم ير منها شيئاً بريئاً عن الحدوث والافتقار إلى الفاعل المختـار ، فاطرحها كلها وانتقلت فكرته إلى الأجسام السماوية .

وانتهى إلى هذا النظـر على رأس أربعة أسابيع من منشـئه ، وذلك ثمانية وعشرون عاماً .

-٦-

فعلم أن السماء وما يها من الكواكب أجسام ، لأنها ممتدة فى الأقطار الثلاثة : الطول ، العرض ، والعمق ؛ لا ينفك شىء منها عن هذه الصفة ، وكل مالا ينفك عن هذه الصفة ، فهو جسم ؛ فهى إذن كلها أجسام .

❁

ثم تفكر هل هى ممتدة إلى غير نهاية ، وذاهبة أبداً فى الطول والعرض والعمق إلى غير نهاية ، أو هى متناهية محدودة بحدود تنقطع عندها ، ولا يمكن أن يكون وراءها شىء من الامتداد ؟ فتحير بعد ذلك بعض حيرة . ثم إنه بقوة فطرته ، وذكاء خاطره ، رأى أن جسماً لا نهاية له أمر باطل ، وشىء لا يمكن ، ومعنى لا يعقل ، وتقوى هذا الحكم عنده بحجج كثيرة ، سنحت له بينه وبين نفسه وذلك أنه قال : أما هذا الجسم السماوى فهو متناه من الجهة التى تلينى والناحية التى وقع عليها حسى ، فهذا لا أشك فيه لأننى أدركه ببصرى ، وأما الجهة التى

تقابل هـذه الجـهة ، وهـى التـى يـداخلنى فيها الشك ، فإنى أيضاً أعلـم أنه من المحال أن تمتد إلى غير نهاية ، لأنى إن تخيلت أن خطين اثنين ، يبتدئان من هذه الجـهة المتناهية ، ويمران فى سمك الجسم إلى غـير نهاية حسب امتداد الجسم ، ثـم تخيلت أن أحد هذين الخطين ، قطع منه جزء كبـير من ناحيـة طرفة المتناهى ، ثم أخذ مـا بقى منه شىء وأطبق الخط المقطوع منه عـلى الخط الذى لم يقطع منه شـىء ، وذهب الذهن كـذلك معهـما إلى الجهة التى يقال إنهـا غير متناهية ، فـإما أن نجد الخطين أبداً يمتـدان إلى غير نهاية ولا ينقص أحـدهما عن الآخر ، فيكون الذى قطع منه جزء مـساوياً للذى لـم يقطع منه شىء وهو مـحال ، كـما أن الكل مثل الجـزء مـحال ؛ وأمـا أن لا يمتد الناقص معـه أبداً ، بل ينقطع دون مذهبـه ويقـف عـن الامتـداد معه ، فـيكون متناهياً ، فإذا رد عليـه القدر الـذى قطع منه أولاً ، وقـد كان مـتناهياً ، صـار كلـه أيضـاً متناهـياً ، حيـنئذ لا يقـصـر عـن الخـط الآخـر الذى يقطع منه شىء ، لا يفـضل عليه فيكون إذن مثله وهو متناه ، فذلك أيضا متناه . فالجسم الذى تفرض فيه هذه الخطـوط مـتناه ، وكل جسـم يمكن أن تفرض فيه هــذه الخـطوط، فكل جـسم متنـاه . فإذا فـرضنا أن جسماً غير متناه ، فـقد فرضنا باطلا ومحالاً .

❁

فلما صح عنده بفطرته الفائقة التى تنبهت لمثل هذه الحجة ، أن جسم

السماء متناه ، أراد أن يعرف على أى شكل هو ، وكيفية انقطاعه بالسطوح التى تحده .

فنظر أولاً إلى الشمس والقمر وسائر الكواكب ، فرآها كلها تطلع من جهة المشرق ، وتغرب من جهة الغرب ، فما كان يمر على سمت رأسه ، رآه يقطع دائرة عظمى ، وما مال عن سمت رأسه إلى الشمال أو إلى الجنوب ، رآه يقطع دائرة أصغر من تلك . وما كان أبعد عن سمت الرأس إلى أحد الجانبين ، كانت دائرته أصغر من دائرة ما هو أقرب . حتى كانت أصغر الدوائر التى تتحرك عليها الكواكب ، دائرتين اثنتين : إحداهما حول القطب الجنوبى ، وهى مدار سهيل ، والأخرى حول القطب الشمالى ، وهى مدار الفرقدين . ولما كان مسكنه على خط الاستواء الذى وصفناه أولاً ، كانت هذه الدوائر كلها على سطح أفقه . ومتشابهة الأحوال فى الجنوب والشمال وكان القطبان معاً ظاهرين له ، وكان يترقب إذا طلع كوكب من الكواكب على دائرة كبيرة ، وطلع كوكب آخر على دائرة صغيرة ، وكان طلوعهما معاً ، فكان يرى غروبهما معاً .

واطّرد له ذلك فى جميع الكواكب وفى جميع الأوقات ، فتبين له بذلك أن الفلك على شكل الكرة ، وقوّى ذلك فى اعتقاده ، ما رآه من رجوع الشمس والقمر وسائر الكواكب إلى المشرق ، بعد مغيبها بالمغرب ، وما رآه أيضا من أنها تظهر لبصره على قدر واحد من العظم

فى حال طلوعها وتوسطهـا وغروبها ، وأنها لو كانت حركتـها على غير شكل الكرة لكانت لا محالة فى بعض الأوقـات ، أقرب إلى بصره منها فى وقت آخر ، ولو كانـت كذلك ، لكانت مقاديرها وأعظامـها تختلف عند بصـره فـيراهـا فى حال القـرب أعظم مما يـراها فى حال البـعـد ، لاختلاف أبـعادها عن مركزه حـينئذ بخلافهـا على الأول . فلما لم يكن شىء من ذلك ؛ تحقق عنده كروية الشكل .

وما زال يتصفح حـركة القمر ، فيراها آخـذه من المغرب إلى المشرق وحـركات الكـواكب السيارة كـذلك ، حتى تبين له قـدر كبيـر من علم الهيئة ، وظهـر له أن حركاتها لا تكون إلا بافلاك كثيـرة ، كلها مضمنة فى فلك واحـد ، هو أعلاها . وهو الـذى يحرك الكل من المشـرق إلى المغرب فى اليوم والليلة . وشرح كيفية انتقاله[٤٢] . ومعرفة ذلك يطول ؛ وهـو مـثبـت فى الكتب ، ولا يحـتاج منه فى غـرضنا إلا للقـدر الذى أوردناه .

فلمـا انتهى إلى هذه المعـرفة ، ووقف على أن الفلك بـجملتـه وما يحتوى عليه ، كـشىء واحد متصل بعضه ببعض ، وأن جـميع الأجسام التى كان ينظر فيـها أولاً : كالأرض والماء والهواء والنبات والحـيوان وما شاكلهـا ، هى كلها فى ضمنه وغـير خارجة عنه ، وأنه كله أشـبه شىء بشخص من أشـخاص الحيـوان ؛ وما فيه من الكـواكب المنيرة هى بمنزلة حواس الحيوان ؛ وما فيه من ضـروب الأفلاك ، المتصل بعضها ببعض ،

هى بمنزلة أعضاء الحيوان ؛ وما فى داخله من الكون والفساد هى بمنزلة ما فى جوف الحيوان من أصناف الفضــول والرطوبات ، التى كثيراً ما يتكون فيها أيضاً حيوان ، كما يتكون فى العالم الأكبر .

❁

فلمــا تبين له أنه كله(*) كشخص واحد فى الحقــيقة ، واتحدت عنده أجزاؤه الكثيرة بنوع من النظر الذى اتحدت به عنده الأجسام التى فى عالم الكون والفســاد ، تفكر فى العالم بجملته ، هل هو شــىء حدث بعد إن لم يكن ، وخرج إلى الوجود بعــد العدم ؟ أو هو أمر كان موجوداً فــيما سلف ، ولم يســبقــه العدم بوجــه من الوجــوه ؟ فتــشكك فى ذلك ولم يترجح عنده أحد الحكمين على الآخر .

وذلك أنه كان إذا أزمع على اعتقاد القدم، اعترضته عوارض كثيرة ، من استــحالة وجود ما لا نهــاية له ، بمثل القياس الذى استــحال عنده به وجود جســم لا نهاية له وكذلك أيضا كــان يرى أن هذا الوجود لا يخلو من الحوادث ، فــهو لا يمكن تقدمه علــيها ، وما لا يمكن أن يتــقدم على الحوادث ، فهو أيضاً محدث .

وإذا أزمع على اعتقــاد الحدوث ، اعترضتــه عوارض أخرى ، وذلك أنه كــان يرى أنه معنى حــدوثه ، بعد أن لم يكن لا يفــهم إلا على أن

(*) فى بعض الطبعات : كلها .

الزمان تقدمه ، والزمان من جملة العالم وغير منفك عنه ، فإذن لا يفهم تأخر العالم عن الزمان .

وكذلك أيضاً كان يقول : «إذا كان حادثاً ، فلابد له من محدث ؛ وهذا المحدث الذى أحدثه ، لِمَ أحدثه الآن ولم يحدثه قبل ذلك ، ألطارئٍ طرأ عليه ولا شىء هناك غيره ، أم لتغير حدث فى ذاته ؟ فإن كان فما الذى أحدث ذلك التغير ؟ »

وما زال يتفكر فى ذلك عدة سنين . فتتعارض عنده الحجج ، ولا يترجح عنده أحد الاعتقادين على الآخر .

❁

فلما أعياه ذلك ، جعل يتفكر ما الذى يلزم عن كل واحد من الاعتقادين ، فلعل اللازم عنهما يكون شيئاً واحداً . فرأى أنه إن اعتقد حدوث العالم وخروجه إلى الوجود بعد العدم ، فاللازم عن ذلك ضرورة ، أنه لا يمكن أن يخرج إلى الوجود بنفسه ، وأنه لابد له من فاعل يخرجه إلى الوجود ، وأن ذلك الفاعل لا يمكن أن يدرك بشىء من الحواس ، لأنه لو أدرك بشىء من الحواس لكان جسماً من الأجسام ، ولو كان جسماً من الأجسام لكان من جملة العالم ، وكان حادثاً واحتاج إلى محدث ، ولو كان ذلك المحدث الثانى أيضاً جسماً ، لاحتاج إلى محدث ثالث ، والثالث إلى رابع ، ويتسلسل ذلك إلى غير نهاية وهو باطل . فإذن لابد للعالم من فاعل ليس بجسم ، وإذا لم يكن جسماً فليس إلى

إدراكه بشىء من الحواس سبيل ، لأن الحواس الخمس لا تدرك إلا الأجسام ؛ أو ما يلحق الأجسام ، وإذا لا يمكن أن يحس فلا يمكن أن يتخيل ، لأن التخيل ليس شيئاً إلا إحضار صور المحسوسات بعد غيبتها ، وإذا لم يكن جسماً فصفات الأجسام كلها تستحيل عليه ، وأول صفات الأجسام هو الامتداد فى الطول والعرض والعمق ، وهو منزه عن ذلك ، وعن جميع ما يتبع هذا الوصف من صفات الأجسام . وإذا كان فاعلاً للعالم فهو لا محالة قادر عليه وعالم به ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ؟ ﴾(٤٣) .

ورأى أيضاً أنه إن اعتقد قدم العالم ، وأن العدم لم يسبقه ، وأنه لم يزل كما هو ، فإن اللازم عن ذلك أن حركته قديمة لا نهاية لها من جهة الابتداء ، إذا لم يسبقها سكون يكون مبدؤها منه ،وكل حركة فلابد لها من محرك ضرورة ، والمحرك إما أن يكون قوية سارية فى جسم من الأجسام - إما جسم المتحرك نفسه ، وإما جسم آخر خارج عنه - وإما أن تكون قوة ليست سارية ولا شائعة فى جسم . وكل قوة سارية فى جسم وشائعة فيه ، فإنها تنقسم بانقسامه ، وتتضاعف بتضاعفه ، مثل الثقل فى الحجر مثلا . المحرك إلى أسفل . فإنه إن قسم الحجر نصفين . وإن زيد عليه آخر مثله ، زاد فى الثقل آخر مثله ، فإن أمكن أن يتزايد الحجر إلى غير نهاية ، كان تزايد هذا الثقل إلى غير نهاية ، وإن وصل الحجر إلى حد ما من العظم ووقف ، وصل الثقل ذلك الحد ووقف ، ولكنه

قد تبرهن أن كل جسم فإنه لا محالة متناه ، فإذن كل قوة فى جسم فهى لا محالة متناهية . فإن وجدنا قوة تفعل فعلاً لا نهاية له ، فهى قوة ليست فى جسم ، وقد وجدنا الفلك يتحرك أبداً حركة لا نهاية لها ولا انقطاع ، إذا فرضنا قديماً لا ابتداء له ، فالواجب على ذلك أن تكون القوة التى تحركت ليست فى جسمه ، ولا فى جسم خارج عنه .

فهى إذن لشىء برىء عن الأجسام ، غير موصوف بشىء من أوصاف الجسمية ، وقد كان لاح له فى نظره الأول فى عالم الكون والفساد أن حقيقة وجود كل جسم ، إنما هى من جهة صورته التى هى استعداده لضروب الحركات ، وأن وجوده الذى له من جهة مادته وجود ضعيف لايكاد يدرك ؛ فإن وجود العالم كله إنما هو من جهة استعداده لتحريك هذا المحرك البرىء عن المادة ، وعن صفات الأجسام ، المنزه عن أن يدركه حس ، أو يتطرق إليه خيال ، سبحانه ، وإذا كان فاعلا لحركات الفلك على اختلاف أنواعها ، فعلاً لا تفاوت فيه ولا فتور ولا قصور ، فهو لا محالة قادر عليها وعالم بها .

فانتهى نظره بهذا الطريق إلى ما انتهى إليه بالطريق الأول ، ولم يضره فى ذلك تشككه فى قدم العالم أو حدوثه ، وصح له على الوجهين جميعاً وجود فاعل غير جسم ، ولا متصل بجسم ولا منفصل عنه ، ولا داخل فيه ، ولا خارج عنه ، إذ : الاتصال ، والانفصال ، والدخول ، والخروج هى كلها من صفات الأجسام ، وهو منزه عنها .

❁

ولما كانت المادة من كل جسم مفتقرة إلى الصورة ، إذ لا تقوم إلا بها ولا تثبت لها حقيقة دونها ، وكانت الصورة لا يصح وجودها إلا من فعل هذا الفاعل تبين له افتقار جميع الموجودات فى وجودها إلى هذا الفاعل وإنه لا قيام لشىء منها إلا به فهو إذن علة لها ، وهى معلولة له ، سواء كانت محدثة الوجود ، بعد أن سبقها العدم ، أو كانت لا ابتداء لها من جهة الزمان ، ولم يسبقها العدم قط ، فإنها على كلا الحالتين معلولة ، ومفتقرة إلى الفاعل ، متعلقة الوجود به ، ولولا دوامه لم تدم ، ولولا وجوده لم توجد ، ولولا قدمه لم تكن قديمة ، وهو فى ذاته غنى عنها وبرىء منها ! وكيف لا يكون كذلك وقد تبرهن أن قدرته غير متناهية ، وأن جميع الأجسام وما يتصل بها أو ، يتعلق بها ، ولو بعض تعلق ، هو متناه منقطع .

فإذن العالم كله بما فيه من السماوات والأرض والكواكب ، وما بينها ، وما فوقها ، وما تحتها ، فعله وخلقه ؛ ومتأخر عنه بالذات ، وإن كانت غير متأخرة بالزمان .

كما أنك إذا أخذت فى قبضتك جسماً من الأجسام ، ثم حركت يدك ، فإن ذلك الجسم لا محالة يتحرك تابعاً لحركة يدك ، حركة متأخرة عن حركة يدك ، تأخراً بالذات ؛ وإن كانت لم تتأخر بالزمان عنها ،

بل كان ابتداؤهما معاً ، فكذلك العالم كله ، معلول ومخلوق لهذا الفاعل بغير زمان ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾(٤٤) .

فلما رأى أن جميع الموجودات فعله ، تصفحها من بعد ذلك تصفحاً على طريق الاعتبار فى قدرة فاعلها ؛ والتعجب من غريب صنعته ، ولطيف حكمته ، ودقيق علمه فتبين له فى أقل الأشياء الموجودة ، فضلاً عن أكثرها من آثار الحكمة ، وبدائع الصنعة ، ما قضى منه كل العجب ، وتحقق عنده أن ذلك لا يصدر إلا عن فاعل مختار فى غاية الكمال وفوق الكمال ﴿لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ﴾(٤٥) .

❁

ثم تأمل فى جميع أصناف الحيوان ، كيف ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾(٤٦) لاستعماله ، فلولا أنه هداه لاستعمال تلك الأعضاء التى خلقت له فى وجوه المنافع المقصود بها ، لما انتفع بها الحيوان ، وكانت كلاًّ عليه ، فعلم بذلك أنه أكرم الكرماء ، وأرحم الرحماء .

❁

ثم إنها مهما نظر شيئاً من الموجودات له حسن ، أو بهاء ، أو كمال ، أو قوة ، أو فضيلة من الفضائل - أى فضيلة كانت - تفكر وعلم أنها من فيض ذلك الفاعل المختار - جلَّ جلاله - ومن جوده ،

ومن فعله ، فعلم أن الذى هو فى ذاته أعظم منها ، وأكمل ، وأتم وأحسن ، وأبهى وأجمل وأدوم ، وأنه لا نسبة لهذه إلى تلك . فما زال يتتبع صفات الكمال كلها ، فيراها له وصادرة عنه ، ويرى أنه أحق بها من كل ما يوصف بها دونه .

وتتبع صفات النقص كلها فرآه بريئاً منها ، ومنزهاً عنها ؛ وكيف لا يكون بريئاً منها وليس معنى النقص إلا العدم المحض ، أو ما يتعلق بالعدم ؟ وكيف يكون العدم تعلق أو تلبس ، بمن هو الموجود المحض ، الواجب الوجود بذاته ، المعطى لكل ذى وجود وجوده ، فلا وجود إلا هو : فهو الوجود ؛ وهو الكمال ، وهو التمام وهو الحسن ، وهو البهاء ، وهو القدرة ، وهو العلم ، وهو هو ، و ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾(٤٧) .

❁

فانتهت به المعرفة إلى هذا الحد، على رأس خمسة أسابيع من منشئه ، وذلك خمسة وثلاثون عاماً ، وقد رسخ فى قلبه من أمر هذا الفاعل ، ما شغله عن الفكرة فى كل شىء إلا فيه ، وذهل عما كان فيه من تصفح الموجودات والبحث عنها ، حتى صار بحيث لا يقع بصره على شىء من الأشياء ، إلا ويرى فيه أثر الصنعة ، من حينه ، فينتقل بفكره على الفور إلى الصانع ويترك المصنوع ، حتى اشتد شوقه إليه ، وانزعج قلبه بالكلية عن العالم الأدنى المحسوس ، وتعلق بالعالم الأرفع المعقول .

-٧-

فلما حصل له العلم بهذا الموجود الرفيع الثابت الوجود الذى لا سبب لوجوده ، وهو سبب لوجود جميع الأشياء ، أراد أن يعلم بأى شيء حصل له هذا العلم ، وبأى قوة أدرك هذا الموجود : فتصفح حواسه كلها وهى : السمع ، والبصر ، والشم ، والذوق ، واللمس ، فرأى أنها كلها لا تدرك شيئاً إلا جسماً ، أو ما هو فى جسم ، وذلك أن السمع إنما يدرك المسموعات ، وهى ما يحدث من تموج الهواء عند تصادم الأجسام ، والبصر إنما يدرك الألوان ، والشم يدرك الروائح ، والذوق يدرك الطعوم ، واللمس يدرك الأمزجة والصلابة واللين ، والخشونة والملاسة ، وكذلك القوة الخيالية لا تدرك شيئاً إلا أن يكون له طول وعرض وعمق ؛ وهذه المدركات كلها من صفات الأجسام ، وليس لهذه الحواس إدراك شيء سواها ، وذلك لأنها قوى شائعة فى الأجسام ، ومنقسمة بانقسامها ، فهى لذلك لا تدرك إلا جسماً منقسماً، لأن هذه القوة إذا كانت شائعة فى شيء منقسم، فلا محالة أنها إذا أدركت شيئاً من الأشياء ، فإنه ينقسم بإنقسامها؛ فإذن كل قوة في جسم، فإنها لا محالة لا تدرك إلا جسماً، أو ما هو جسم[٤٨] .

وقد تبين أن هذا الموجود الواجب الوجود ، برىء من صفات الأجسام من جميع الجهات ، فإذن لا سبيل إلى إدراكه إلا بشىء ليس بجسم ، ولا هو قوة فى جسم ، ولا تعلق له بوجه من الوجوه بالأجسام، ولا هو داخل فيها ولا خارج عنها ، ولا متصل بها ولا منفصل عنها . وقد كان تبين له أنه أدركه بذاته ، ورسخت المعرفة به عنده فتبين له بذلك أن ذاته التى أدركه بها أمر غير جسمانى ، ولا يجوز عليه شىء من صفات الأجسام ، وأن كل ما يدركه من ظاهر ذاته من الجسمانية فإنها ليست حقيقة ذاته ، وإنما حقيقة ذاته ذلك الشىء الذى أدرك به الموجود المطلق الواجب الوجود .

فلما علم أن ذاته ليست هذه المتجسمة التى يدركها بحواسه ، ويحيط بها أديمه ، هان عنده بالجملة جسمه ، وجعل يتفكر فى تلك الذات الشريفة ، التى أدرك بها الموجود الشريف الواجب الوجود ، ونظر فى ذاته تلك الشريفة ، هل يمكن أن تبيد أو تفسد وتضمحل ، أو هى دائمة البقاء ؟ فرأى أن الفساد والاضمحلال إنما هو من صفات الأجسام بأن تخلع صورة وتلبس أخرى ، مثل الماء إذا صار هواء ، والهواء إذا صار ماء ، والنبات إذا صار تراباً أو رماداً ، والتراب إذا صار نباتاً ، فهذا هو معنى الفساد . وأما الشىء الذى ليس بجسم ، ولا يحتاج فى قوامه إلي الجسم ، وهو منزه بالجملة عن الجسمانية ، فلا يتصور فساده البتة .

فلما ثبت له أن ذاته الحقيقية لا يمكن فسادها ، أراد أن يعلم كيف يكون حالها إذا أطرحت البدن وتخلت عنه ، وقد كانت تبين له أنها لا

تطرحه إلا إذا لم يصلح آله لها ، فتصفح جميع القوى المدركة ، فرأى أن كل واحدة منها تارة تكون مدركة بالقوة ، وتارة تكون مدركة بالفعل: مثل العين فى حال تغميضها أو إعراضها عن البصر ، فإنها تكون مدركة بالقوة - ومعنى مدركه بالقوة أنها لا تدرك الآن وتدرك فى المستقبل - وفى حال فتحها واستقبالها للمبصر ، تكون مدركة بالفعل - ومعنى مدركة بالفعل أنها الآن تدرك - وكذلك كل واحدة من هذه القوى تكون مدركة بالقوة وتكون مدركة بالفعل ، وكل واحدة من هذه القوى إن كانت لم تدرك قط بالفعل ، فهى ما دامت بالقوة لا تتشوق إلى إداك الشىء المخصوص بها ، لأنها لم تتعرف به بعد ، مثل من خلق مكفوف البصر ؛ وإن كانت قد أدركت بالفعل تارة ، ثم صارت بالقوة ، فإنها ما دامت بالقوة تشتاق إلى الإدراك بالفعل لأنها قد تعرفت إلى المدرك ، وتعلقت به ، وحنت إليه ، مثل من كان بصيراً ثم عمى فإنه لا يزال يشتاق إلى المبصرات . وبحسب ما يكون الشىء المدرك أتم وأبهى وأحسن ، يكون الشوق إليه أكثر ؛ والتألم لفقده أعظم ، ولذلك كان تألم من يفقد بصره بعد الرؤية أعظم من تألم من يفقده شمه ، إذ الأشياء التى يدركها البصر أتم وأحسن من التى يدركها الشم ، فإن كان فى الأشياء شىء لا نهاية لكماله ، ولا غاية لحسنة وجماله وبهائه ، وهو فوق الكمال والبهاء والحسن ، وليس فى الوجود كمال ، ولا حسن ، ولا بهاء ، ولا جمال إلا صادر من جهته ، وفائض من قبله ، فمن فقد إدراك ذلك الشىء بعد أن تعرف به ، فلا محالة أنه ما دام فاقداً له ،

يكون فى آلام لا نهاية لها ، كما أن من كان مدركاً له على الدوام ، فإنه يكون فى لذة لا انفصام لها ، وغبطة لا غاية وراءها ، وبهجة وسرور لا نهاية لهما .

وقد كان تبين له أن الموجود الواجب الوجود . متصف بأوصاف الكمال كلها ، ومنزه عن صفات النقص وبرىء منها .

وتبين له أن الشىء الذى به يتوصل إلى إدراكه أمر لا يشبه الأجسام ، ولا يفسد لفسادها ؛ فظهر له بذلك أن من كانت له مثل هذه الذات ، المعدة لمثل هذا الإدراك ؛ فإنه إذا أطرح البدن بالموت ؛ فإما أن يكون قبل ذلك - فى مدة تصريفه للبدن - لم يتعرف قط بهذا الموجود الواجب الوجود ؛ ولا اتصل به ؛ ولا سمع عنه ؛ فهذا إذا فارق البدن لا يشتاق إلى ذلك الموجود ولا يتألم لفقده .

وأما جميع القوى الجسمانية ، فإنها تبطل ببطلان الجسم ؛ فلا تشتاق أيضاً إلى مقتضيات تلك القوى ، ولا تحن إليها ، ولا تتألم لفقدها . وهذه حال البهائم غير الناطقة كلها : سواء كانت من صورة الإنسان أو لم تكن . وأما أن يكون قبل ذلك - فى مدة تصريفه للبدن - قد تعرف بهذا الموجود ، وعلم ما هو عليه من الكمال والعظمة والسلطان والقدرة والحسن إلا أنه أعرَض عنه واتبع هواه ، حتى وافته منيته وهو على تلك الحال ، فيحرم المشاهدة ، وعنده الشوق إليها فيبقى فى عذاب طويل ، وآلام لا نهاية لها . فإما أن يتخلص من تلك الآلام بعد جهد

طويل ، ويشاهد ما تشوق إليه قبل ذلك ، وإما أن يبقى فى آلامه بقاء سرمدياً ، بحسب استعداده لكل واحد من الوجهين فى حياته الجسمانية . وأما من تعرف بهذا الموجود الواجب الوجود ، قبل أن يفارق البدن ، وأقبل بكليته عليه والتزم الفكرة فى جلاله وحسنه وبهائه ، ولم يعرض عنه حتى وافته منيته ، وهذا على حال من الإقبال والمشاهدة بالفعل . فهذا إذا فارق البدن بقى فى لذة لا نهاية لها ، وغبطة وسرور وفرح دائم ، لا تصال مشاهدته لذلك الموجود الواجب ، وسلامة تلك المشاهدة من الكدر والشوائب ؛ ويزول عنه ما تقتضيه هذه القوى الجسمانية من الأمور الحسية التى هى - بالإضافة إلى تلك الحال - آلم وشرور وعوائق .

فلما تبين له أن كمال ذاته ولذتها إنما هو بمشاهدة ذلك الموجود الواجب الوجود على الدوام ، مشاهدة بالفعل أبداً ، حتى لا يعرف عنه طرفة عين لكى توافيه منيته ، وهو فى حال المشاهدة بالفعل ، فتتصل لذته دون أن أن يتخللها ألم(٤٨) .

ثم جعل يتفكر كيف يتأتى له دوام هذه المشاهدة بالفعل ، حتى لا يقع منه إعراض فكان يلازم الفكرة فى ذلك الموجود كل ساعة ، فما هو إلا أن يسنح لبصره محسوس ما من المحسوسات ، أو يخرق سمعه صوت بعض الحيوان ، أو يعترضه خيال من الخيالات ، أو يناله ألم فى أحد أعضائه ، أو يصيبه الجوع أو العطش أو البرد أو الحر ، أو يحتاج إلى القيام لدفع فضوله ؛ فتختل فكرته ، ويزول عما كان فيه ، ويتعذر عليه الرجوع إلى ما كان عليه من حال المشاهدة ، إلا بعد جهد .

وكان يخاف أن تفـجأه منيته وهو فى حال الإعراض ، فـيفضى إلى الشقاء الدائم ، وألم الحجاب . فساءه حاله ذلك ، وأعياه الدواء .

فجعل يتصفح أنواع الحيوانات كلها ، وينظر أفعالها وما تسعى فيه ، لعله يتفطن فى بعضها أنها شعرت بهذا الموجود ، وجعلت تسعى نحوه، فيـتعلم منهـا ما يكون سبب نجـاته ، فرآها كلهـا إنما تسعى فى تحـصيل غذائها ، ومقتضى شهواتها من المطعوم والمشروب والمنكوح ، والاستظلال والاستـدفاء ، وتجـد فـى ذلك ليلهـا ونهارها إلى حين ممـاتها وانقـضاء مدتها . ولم ير شيئاً منهـا ينحرف عن هذا الرأى ، ولا يسعى لغيره فى وقت من الأوقـات ، فبـان له بذلك أنهـا لـم تشـعر بذلك الموجـود ولا اشتاقت إليه ، ولا تعرفت به بوجـه من الوجوه ، وأنها كلها صائرة إلى العدم ، أو إلى حال شبيه بالعدم .

فلمـا حـكم بـذلك على الحيوان، علم أن الحكم له على النبات أولى ، إذ ليس للنبات من الإدراكات إلا بعض ما للحيوان . وإذا كان الأكـمل إدراكاً لـم يصـل إلـى هذه المعرفة ، فالأنقص إدراكاً أحرى أن لا يصـل ، مع أنه رأى أيضا أن أفعال النبات كلها لا تتعدى الغذاء والتوليد .

ثم إنه بعـد ذلك نظر إلى الكواكب والأفـلاك فرآها كـلها منتظمـة الحركات ، جارية على نسق ؛ ورآها شفافة ومضيئة بعيدة عن قبول التغير والفساد ، فحدس حدساً قوياً أن لـها ذوات سوى أجسامها ، تعرف ذلك الموجود الواجب الوجود ، وأن تلك الذوات العارفـة ليست بأجسام ، ولا

منطبعـة فى أجسام مثل ذاته ، هـو ، العارفة ، وكيف لا يكون لهـا مثل تلك الذوات البـريئة عن الجـسـمانيـة ، ويكون لمثله هو على مـا به من الضعف وشدة الاحـتياج إلى الأمور المحسوسة ، وأنه من جـملة الأجسام الفاسدة ؟ ومع ما به من النقص ، فلم يعقه ذلك عن أن تكون ذاته بريئة عـن الأجـسـام لا تفـسد ، فـتبين لـه بذلك أن الأجـسام السمـاوية أولى بذلك ، وعلم أنهـا تعرف ذلك الموجـود الواجب الوجود وتشـاهده على الدوام بالفـعل ، لأن العـوائق التى قطعـت بـه هو عن دوام المشـاهدة من العوارض المحسوسة ، لا يوجد مثلها للأجسام السماوية .

ثم إنه تفكر : لم اختص هو من بين سائر أنواع الحيوان بهذه الذات التى أشبه بها الأجسام السماوية .

وقد كان تبين له أولاً من أمر العناصر واستحالة بعضها إلى بعض، وأن جميع ما على وجه الأرض لا يبقى على صورته ؛ بل الكون والفساد متعـاقبان عليه أبداً ، وأن أكـثر هذه الأجسام مـختلطة مركبـة من أشياء متضادة ، ولذلك تؤول إلى الفساد ، وأنه لا يوجد منه شىء صرفاً ، وما كان منها قريبـاً من أن يكون صرفاً خالصاً لا شائبة فيـه ، فهو بعيد عن الفساد جداً مثل الذهب والياقـوت ، وأن الأجسام بسيطة صرفة ، ولذلك هى بعيدة عن الفساد ، والصور لا تتعاقب عليها .

وتبين له هنالك أن جمـيع الأجسام التى فى عالم الكون والـفساد ، منها ما تقوم حقيقتهـا بصورة واحدة زائدة على معنى الجسمية - وهذه هى

الاسطقسات الأربع - ومنهـا ما تتقوم حقيـقتها بأكثر من ذلك كـالحيوان والنبات . فما كـان قوام حقيقته بصور أقل ، كـانت أفعاله أقل ، وبعده عن الحياة أكثر ، فإن عدم الصـورة جملة لم يكن فيه إلى الحياة طريق ، وصار فى حال شبيه بالعدم ، وما كان قـوام حقيقته بصورة أكثر ، كانت أفعـاله أكثـر ، ودخوله فى حال الحـياة أبلغ ؛ وإن كانـت تلك الصورة بحيث لا سبيل إلى مفارقتها لمادتهـا التى اختصت بها كانت الحياة حينئذ فى غاية الظهور والدوام والقوة . فالشىء العديم للصورة جملة هو الهيولى والمادة ، ولا شىء من الحيـاة فيها وهى شبـيهة بالعدم ، والشـىء المتقوم بصورة واحـدة هى الاسطقسـات الأربع وهى فى أول مراتب الـوجود فى عالم الكون والفسـاد ومنها تتركب الأشياء ذوات الصـور الكثيرة . وهذه الاسطقسات ضـعيفة الحيـاة جداً ، إذ ليست تتحرك إلا حـركة واحدة ، وإنما كانت ضعيفة الحياة لأن لكل واحد منها ضداً ظاهر العناد يخالفه فى مقتضى طبيعته ، ويطلب أن يغير صورته . فوجوده لذلك غير متمكن ، وحياته ضعيفة ، والنبات أقوى حياة منه والحيوان أظهر حياة منه . وذلك أن ما كان من هذه المركبات تغلب عليه طبيعة أسطقس واحد ، فلقوته فيه يغلب طبائع الأسطقسات الباقية ، ويبطل قواها ، ويصير ذلك المركب فى حكم الأسطقس الغالب ، فـلا يستأهل لأجل ذلك مـن الحياة إلا شيـئا يسيراً، كما أنه ذلك إلا الأسطقس لا يستأهل من الحياة إلا يسيراً ضعـيفاً وما كان من هذه المركبات لا تغلب عليه طبيعة أسطقس واحد منها ، فإن الاسطقسات تكون فيه متعـادلة متكافئة ، فإذن لا يبطل أحدها قوة الآخر

بأكثر مما يبطل ذلك الآخر قوته ، بل يفعل بعضها فى بعض فعلا متساوياً ، فلا يكون فعل أحد الأسطقسات أظهر فيه ، ولا يستولى عليه أحدها ، فيكون بعيد الشبه من كل واحد من الاسطقسات ، فكان لا مضادة لصورته ، فيستأهل الحياة بذلك . ومتى زاد هذا الاعتدال وكان أتم وأبعد من الانحراف ، كان بعده عن أن يوجد له ضد أكثر ، وكانت حياته أكمل .

ولما كان الروح الحيوانى الذى مسكنه القلب ، شديد الاعتدال لأنه ألطف من الأرض والماء وأغلظ من النار والهواء ، صار فى حكم الوسط ولم يضاده شيء من الأسطقسات مضادة بينة . فاستعد بذلك لصورة الحيوانية ، فرأى أن الواجب على ذلك أن يكون أعدل ما فى هذه الأرواح الحيوانية مستعداً لأتم ما يكون من الحياة فى عالم الكون والفساد ، وأن يكون ذلك الروح قريباً من أن يقال إنه لا ضد لصورته ، فيشبه لذلك هذه الأجسام السماوية التى لا ضد لصورها ؛ ويكون روح ذلك الحيوان ، وكأنه وسط بالحقيقة بين الأسطقسات التى لا تتحرك إلى جهة العلو على الإطلاق ، ولا إلى جهة السفل ، بل لو أمكن أن يجعل فى وسط المسافة التى بين المراكز وأعلى ما تنتهى إليه النار فى جهة العلو ولم يطرأ عليه فساد ، لثبت هناك ولم يطلب الصعود ولا النزول . ولو تحرك فى المكان ، لتحرك حول الوسط كما تتحرك الأجسام السماوية ، ولو تحرك فى الوضع ، لتحرك على نفسه ، وكان كروى الشكل إذ لا يمكن غير ذلك ، فإذن هو شديد الشبه بالأجسام السماوية .

ولما كان قد اعتبر أحوال الحيـوان ، ولـم ير فيها ما يظن به أنه شعر بالموجود الواجب الوجـود ، وقد كان علم من ذاته أنها قـد شعرت به ، قطع بذلك على أنه هو الحيوان المعتدل الروح ، الشبيه بالأجسام السماوية وتبين لـو أنه نـوع مـباين لـسائر أنواع الحـيوان ، وأنه إنما خلق لغـاية أخرى ، وأعد لأمر عظيم ، لم يعـد له شىء من أنواع الحيوان ، وكفى به شرفاً أن يكون أخس جزأيه - وهو الجسمانى - أشبه الأشياء بالجواهر السماوية الخـارجة عن عالم الكون والفسـاد ، المنزهة عن حوادث النقص والاستحـالة والتغير . وأمـا أشرف جزأيه ، فهـو الشىء الذى به عرف الموجـود الواجب الوجـود ، وهذا الشىء العـارف ، أمـر ربانى إلهى لا يستحيل ولا يلحقه الفساد ، ، ولا يوصف بشىء مما توصفه به الأجسام ، ولا يدرك بشىء من الحواس ، ولا يتخيل ، ولا يتـوصل إلى معرفته بآلة سواه ، بل يتـوصل إليه به ؛ فهـو العارف والمعروف ، والمعـرفة ؛ وهو العالم ، والمعلوم ، والعـلم ؛ لا يتباين فى شىء من ذلك ، إذ التـباين والانفصال مـن صفات الأجسام ولواحـقها ، ولا جسم هنـالك ولا صفة ولا لاحق بجسم !

فلما تـبين له الوجه الذى اختـص به من بين سائر أصناف الحـيوان بمشابهـة الأجسام السمـاوية ، رأى أن الواجب عليه أن يتقبلهـا ويحاكى أفعالها ، ويتـشبه بها جهده . وكـذلك رأى أنه بجزئه الأشرف الذى به عرف الموجود الواجب الوجـود ، فيه شبه مـا منه من حيث هو منزه عن

صفات الأجسام ، كما أن الواجب الوجود منزه عنها ، فرأى أيضاً أنه يجب عليه أن يسعى فى تحصيل صفاته لنفسه من أى وجه أمكن ، وأن يتخلق بأخلاقه ويقتدى بأفعاله ، ويجد فى تنفيذ إرادته ، ويسلم الأمر له ، ويرضى بجميع حكمه ، رضى من قلبهِ ظاهراً وباطناً ، بحيث يسر به وإن كان مؤلماً لجسمه وضاراً به ومتلفاً لبدنه بالجملة .

وكذلك أيضاً رأى أن فيه شبهاً من سائر أنواع الحيوان بجزئه الخسيس الذى هو من عالم الكون والفساد ، وهو البدن المظلم الكثيف ، الذى يطالبه بأنواع المحسوسات من المطعوم والمشروب والمنكوح ، ورأى أيضاً أن ذلك البدن لم يخلق له عبثاً ولا قرن به لأمر باطل ، وأنه يجب عليه أن يتفقده ويصلح من شأنه . وهذا التفقد لا يكون منه إلا بفعل يشبه أفعال سائر الحيوان .

فاتجهت عنده الأعمال التى يجب عليها أن يفعلها نحو ثلاثة أغراض :

إما عمل يتشبه بالحيوان غير الناطق .

وإما عمل يتشبه به بالأجسام السماوية .

وإما عمل يتشبه به بالموجود الواجب الوجود .

فالتشبه الأول : يجب عليه من حيث له البدن المظلم ذو الأعضاء المنقسمة ، والقوى المختلفة ، والمنازع المتفننة .

والتشبه الثانى : يجب عليه من حيث له الروح الحيوان الذى مسكنه القلب ، وهو مبدأ لسائر البدن ، ولما فيه من القوى .

والتشبه الثالث : يجب عليه من حيث هو هو ، أى : من حيث هو الذات التى بها عرف ذلك الموجود الواجب الوجود .

وكان أولاً قد وقف على أن سعادته وفوزه من الشقاء ، إنما هى فى دوام المشاهدة لهذا الموجود الواجب الوجود ، حتى يكون بحيث لا يعرض عنه طرفة عين .

ثم إنه نظر فى الوجه الذى يتأتى له به هذا الدوام ، فأخر له النظر أنه يجب عليه الاعتمال فى هذه الأقسام الثلاثة من التشبهات :

أما التشبه الأول ، فلا يحصل له به شىء من هذه المشاهدة ، بل هو صارف عنها وعائق دونها ، إذ هو تصرف فى الأمور المحسوسة ، والأمور المحسوسة كلها حجب معترضة دون تلك المشاهدة ؛ وإنما احتيج إلى هذا التشبه لاستدامة هذا الروح الحيوانى الذى يحصل به التشبه الثانى بالأجسام السماوية . فالضرورة تدعو إليه من هذا الطريق ، ولو كان لا يخلو من تلك المضرة .

وأما التشبه الثانى ، فيحصل له به حظ عظيم من المشاهدة على الدوام ، لكنها مشاهدة يخالطها شوب ؛ إذ من يشاهد ذلك النحو من المشاهدة على الدوام ، فهو مع تلك المشاهدة يعقل ذاته ويلتفت إليه حسبما يتبين بعد هذا .

وأما التشبه الثالث ، فتحصل به المشاهدة الصرفة ، والاستغراق المحض الذى لا التفات فيه بوجه من الوجوه إلا إلى الموجود الواجب الوجود ، والذى يشاهد هذه المشاهدة قد غابت عنه ذات نفسه وفنيت وتلاشت . وكذلك سائر الذوات ، كثيرة كانت أو قليلة ، إلا ذات الواحد الحق الواجب الوجود - جلّ وتعالى وعزّ .

فلما تبين له أن مطلوبه الأقصى هو هذا التشبه الثالث ، وأنه لا يحصل له إلا بعد التمرن والاعتمال مدة طويلة فى التشبه الثانى ، وأن هذه المدة لا تدوم له إلا بالتشبه الأول ، وعلم أن التشبه الأول - وإن كان ضرورياً ، فإنه عائق بذاته وإن كان معيناً بالعرض لا بالذات لكنه ضرورى - فألزام نفسه أن لا يجعل لها حظاً من هذا التشبه الأول ، إلا بقدر الضرورة ، وهى الكفاية التى لا بقاء للروح الحيوانى بأقل منها .

ووجد ما تدعو إليه الضرورة فى بقاء هذا الروح أمرين :

أحدهما : ما يمده من داخل ، ويخلف عليه بدل ما يتحلل منه وهو الغذاء .

والآخر : ما يقيه من خارج ، ويدفع عنه وجوه الأذى : من البرد والحرّ والمطر ولفح الشمس والحيوانات المؤذية ونحو ذلك . ورأى أنه إن تناول ضرورية من هذه جزافاً كيفما اتفق ، ربما وقع فى السرف وأخذ فوق الكفاية . فكان سعيه على نفسه من حيث لا يشعر ، فرأى أن الحزم له أن يفرض لنفسه فيها حدوداً لا يتعداها ، ومقادير لايتجاوزها ، وبأن

له أن الفرض يجب أن يكون فى جنس مـا يتغذى به . وأى شىء يكون وفى مقداره وفى المدة التى تكون بين العودات إليه .

❁

فنظر أولاً فى أجناس ما به يتغذى ، فرآها ثلاثة أضرب :

١- إما نبات لم يكمل بعد نضجه ولم ينته إلى غاية تمامه ، وهى أصناف البقول الرطبة التى يمكن الاغتذاء بها .

٢- وإما ثمـرت النبات الذى قد تم وتناهى وأخرج بذره ليـتكون منه آخر من نوعه حفظاً له ، وهى أصناف الفواكه رطبها ويابسها .

٣- وإما حيوان من الحيوانات التى يتغذى بها : إما البرّية وإما البحرية .

وكان قـد صح عنده أن هذه الأجناس كلها ، من فـعل ذلك الموجود الواجب الوجود الذى تبين له أن سعادته فى القـرب منه ، وطلب التشبه به ، ولا محالة أن الاغتذاء بها مما يقطعهـا عن كمالها ويحول بينها وبين الغاية القـصوى المقصودة بهـا . فكان ذلك اعتراض على فـعل الفاعل . وهذا الاعتـراض مضاد لمـا يطلبه من القرب منه والـتشبـه به . فرأى أن الصواب كـان له لو أمكن أن يمتنع عن الغذاء جمـلة واحدة ، لكنه لما لم يمكنه ذلك ، لأنه إن امتنع عنه آل ذلك إلى فـساد جسمـه ، فيكون ذلك اعتراضاً على فاعله أشد من الأول ، إذ هو أشرف من تلك الأشياء الآخر التى يكون فسادها سبـباً لبقائه ، فاستسـهل أيسر الضررين ، وتسامح فى

أخف الاعتراضين ، ورأى أن يأخذ من هذه الأجناس إذا عدمت أيها تيسر له ، بالقدر الذى يتبين له بعد هذا . فأما إن كانت كلها موجودة فينبغى له حينئذ أن يتثبت ويتخير منها ما لم يكن فى أخذه كبير اعتراض على فعل الفاعل ، وذلك مثل لحوم الفواكه التى قد تناهت فى الطيب ، وصلح ما فيها من البزر لتوليد المثل على شرط التحفظ بذلك البزر ، بأن لا يأكله ولا يفسده ولا يلقيه فى موضع لا يصلح للنبات ، مثل الصفاة والسبخة ونحوهما . فإن تعذر عليه وجود مثل هذه الثمرات ذات الطعم الغاذى ، كالتفاح والكمثرى والإجاص ونحوها ، كان له عند ذلك أن يأكل إما من الثمرات التى لا يغذو منها إلا نفس البزر ، كالجوز والقسطل ، وإما من البقول التى لم تصل بعد حد كمالها . والشرط عليه فى هذين أن يقصد أكثرها وجوداً وأقواها توليداً ، وأن لا يستأصل أصولها ولا يفنى بزرها . فإن عدم هذه ، فله أن يأخذ من الحيوان أو من بيضه ، والشرط عليه فى الحيوان أن يأخذ من أكثره وجوداً ، ولا يستأصل منه نوعاً بأسره .

هذا ما رآه فى جنس ما يتغذي به .

وأما المقدار فرأى أن يكون بحسب ما يسد خلة الجوع ولا يزيد عليها .

وأما الزمان الذى بين كل عودتين ، فرأى أنه إذا أخذ حاجته من الغذاء ، أن يقيم عليه ولا يتعرض لسواه ، حتى يلحقه ضعف يقطع به

عن بعض الأعـمال التى تجب عليـه فى التشـبه الثـانى ، وهى التى يأتى ذكرها بعد هذا .

❁

فـأما مـــا تدعو إليه الضـرورة فى بقاء الروح الحـيوانى مما يقـيه من خارج ، فكان الخطب فيه عليه يسيراً : إذ كان مكتسياً بالجلود ، وقد كان له مسكن يقيــه مما يرد عليه من خارج ، فاكتفى بذلك ولم يـر الاشتغال به ، والتـزم فى غذائه القـوانين التى رسـمهـا لنفـسه ، وهى التى تقـدم شرحها .

ثم أخذ فى العمل الثانى ، وهو التشبـه بالأجسام السماوية والاقتداء بها ، والتقـبل لصفاتها ، وتتـبع أوصافها ، فانحـصرت عنده فى ثلاثة أضرب :

الضرب الأول : أوصاف لهـا بالإضافة إلى مـا تحتهـا من عالم الكون والفســاد ، وهى ما تعطيه إيـاه من التسخين بالذات ، أو التـبريد بالعرض ، والإضاءة والتلـطيف والتكثيف ، إلى سائر ما تفـعل فيه من الأمور التى بـهـا يستعـد لفيضان الصـور الروحانية عليـه من عند الفاعل الواجب والوجود .

الضرب الثانى : أوصاف لهـا فى ذاتها ، مـثل كونهـا شفـافة وناصعة وطاهرة منزهة عن الكدر وضروب الرجس ، ومتحركة بالاستدارة بعضها على مركز نفسها ، وبعضها على مركز غيرها .

والضرب الثالث : أوصاف لها بالإضافة إلى الموجود الواجب الوجود ، مثل كونها تشاهده مشاهدة دائمة ، وتعرض عنه ، وتتشوق إليه ، وتتصرف بحكمه ، وتتسخر فى تتميم إرادته ، ولا تتحرك إلا بمشيئته وفى قبضته . فجعل يتشبه بها جهده فى كل واحد من هذه الأضرب الثلاثة .

❁

أما الضرب الأول : فكان تشبه بها فيه : أن ألزم نفسه أن لا يرى ذا حاجة أو عاهة أو مضره ، أو ذا عائق من الحيوان أو النبات ، وهو يقدر على إزالتها عنه إلا ويزيلها .

فمتى وقع بصرع على نبات قد حجبه عن الشمس حاجب أو تعلق به نبات آخر يؤذيه ، أو عطش عطشاً يكاد يفسده ، أزال عنه ذلك الحاجب إن كان مما يزال ، وفصل بينه وبين ذلك المؤذى بفاصل لا يضر المؤذى ، وتعهده بالسقى ما أمكنه .

ومتى وقع بصره على حيوان قد أرهقه سبع أو نشب به ناشب ، أو تعلق به شوك ، أو سقط فى عينيه أو أذنيه شىء يؤذيه ، أو مسه ظمأ أو جوع ، تكفل بإزالة ذلك كله عنه جهده وأطعمه وسقاه .

ومتى وقع بصره على ماء يسيل إلى سقى نبات أو حيوان وقد عاقه عن مره ذلك عائق ، من حجر سقط فيه ، أو جرف أنهار عليه ، أزال ذلك كله عنه .

ومازال يمعن فى هذا النوع من ضروب التشبه حتى بلغ فيه الغاية .

❁

وأما الضرب الثانى : فكان تشبهه بها فيه أن ألزم نفسه دوام الطهارة وإزالة الدنس والرجس عن جسمه والاغتسال بالماء فى أكثر الأوقات ، وتنظيف ما كان من أظفار وأسنانه ومغابن بدنه ، وتطيببها بما أمكنه من طيب النبات وصنوف الدواهن المعطرة ، وتعهد لباسه بالتنظيف والتطييب حتى كان يتلألأ حسناً وجمالاً ونظافة وطيباً .

والتزم مع ذلك ضروب الحركة على الاستدارة : فتارة كان يطوف بالجزيرة ، ويدور على ساحلها ويسيح بأكنافها ، وتارة كان يطوف ببيته ، أو ببعض الكدى أدواراً معدودة : إما مشياً ، وإما هرولة ؛ وتارة يدور على نفسه حتى يغشى عليه .

وأما الضرب الثالث : فكان تشبه بها فيه ، أن كان يلازم الفكرة فى ذلك الموجود الواجب الوجود ثم يقطع علائق المحسوسات . ويغمض عينيه ، ويسد أذنيه ، ويضرب جهده عن تتبع الخيال ، ويروم بمبلغ طاقته أن لا يفكر فى شىء سواه ، ولا يشرك به أحداً ويستعين على ذلك بالاستدارة على نفسه والاستحثاث فيها . فكان إذا اشتد فى الاستدارة ، غابت عنه جميع المحسوسات ، وضعف الخيال ، وسائر القوى تحتاج إلى الآلات الجسمانية ، وقوي فعل ذاته - التى هى بريئة من الجسم - فكانت فى بعض الأوقات فكرته قد تخلص عن الشوب ويشاهد بها الموجود

الواجب الوجود ، ثم تكر عليه القوى الجسمانية فتفسد عليه حاله ، وترده إلى أسفل السافلين . فيعود من ذى قبل ، فإن لحقه ضعف يقطع به عن غرضه تناول بعض الأغذية عن الشرائط المذكورة . ثم انتقل إلى شأنه من التشبه بالأجسام السماوية بالأضرب الثلاثة المذكورة .

ودأب على ذلك مدة وهو يجاهد قواه الجسمانية وتجاهده ، وينازعها وتنازعه فى الأوقات التى يكون له عليها الظهور ، وتتخلص فكرته عن الشوب ، يلوح له شىء من أحوال أهل التشبه الثالث .

ثم جعل يطلب التشبه الثالث ، ويسعى فى تحصيله ، فينظر فى صفات الموجود الواجب الوجود . وقد كان تبين له أثناء نظره العلمى قبل الشروع فى العمل ، أنها على ضربين :

إما صفة ثبوت : كالعلم والقدرة والحكمة .

وإما صفة سلب : كتنزهه عن الجسمانية وعن صفات الأجسام ولواحقها ، وما يتعلق بها ، ولو على بعد .

وأن صفات الثبوت يشترط فيها هذا التنزيه حتى لا يكون فيها شىء من صفات الأجسام التى من جملتها الكثرة ، فلا تتكثر ذاته بهذه الصفات الثبوتية ، ثم ترجع كلها إلى معنى واحد هى حقيقة ذاته . فجعل يطلب كيف يتشبه به فى كل واحد من هذين الضربين .

أما صفات الإيجاب ، فلما علم أنها كلها راجعة إلى حقيقة ذاته ،

وأنه لا كثرة فيها بوجه من الوجوه ، إذ الكثرة من صفات الأجسام ؛ وعلم أن علمه بذاته ؛ ليس معنى زائداً على ذاته ، بل ذاته هى علمه بذاته ؛ وعلمه بذاته هو ذاته ، تبين له أن إن أمكنه هو أن يعلم ذاته ، فليس ذلك العلم الذى علم به ذاته معنى زائداً على ذاته ، بل هو هو ! فرأى أن التشبه به من صفات الإيجاب ، هو أن يعلمه فقط دون أن يشترك به شيئاً من صفات الأجسام ؛ فأخذ نفسه بذلك .

وأما صفات السلب ، فإنها كلها راجعة إلى التنزه عن الجسمية .

فجعل يطرح أوصاف الجسمية عن ذاته . وكان قد طرح منها كثيرا فى رياضته المتقدمة التى كان ينحو بها بالتشبه بالأجسام السماوية . إلا أنه أبقى منها بقايا كثيرة : كحركة الاستدارة - والحركة من أخص صفات الأجسام - وكالاعتناء بأمر الحيوان والنبات والرحمة لها ، والاهتمام بإزالة عوائقها . فإن هذه أيضا من صفات الأجسام ، إذ لا يراها أولاً إلا بقوة جسمانية ، ثم يكدح فى أمرها بقوة جسمانية أيضاً .

فأخذ فى طرح ذلك كله عن نفسه ، إذ هى بجملتها مما لا يليق بهذه الحالة التى يطلبها الآن .

ومازال يقتصر على السكون فى قصر(*) مغارته مطرقا ، غاضاً بصره ، معرضاً عن جميع المحسوسات والقوى الجسمانية ، مجتمع الهم

(*) لعلها «قمر» ، إنما أجمعت الطبعات على «قصر» ! .

والفكرة فى الموجود الواجب الوجود وحده دون شركة ؛ فمتى سنح لخياله سانح سواه ، طرده عن خياله جهده ، ودافعه وراض نفسه على ذلك ، ودأب فيه مدة طويلة ، بحيث تمر عليه عدة أيام لا يتغذى فيها ولا يتحرك .

وفى خلال شدة مجاهدته هذه ربما كانت تغيب عن ذكره وفكره جميع الأشياء إلا ذاته ، فإنها كانت لا تغيب عنه فى وقت استغراقه بمشاهدة الموجود الأول الحق الواجب الوجود . فكان يسوءه ذلك ، ويعلم أنه شوب فى المشاهدة المحضة ، وشركة فى الملاحظة .

- ٨ -

وما زال يطلب الفناء عن نفسه والإخـلاص فى مشاهدة الحق ، حتى تأتى له ذلك ، وغابت عن ذكره وفكره السمـاوات والأرض وما بينهما ، وجميع الصـور الروحانيـة والقوى الجسـمانية ، وجـميع القوى المفـارقة للمـواد، ، والتى هى الذوات العـارفة بالموجـود الحق ؛ وغـابت ذاته فى جملة تلك الذوات ، وتلاشى الكل واضمحل ، وصار هباء منثوراً ، ولم يبق إلا الواحد الحق الموجود الثابت الوجود . وهو يقول بقوله الذى ليس معنى زائداً عـلى ذاته : « لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد الـقهار ! » فـفهم كلامـه وسمع نداءه ولم يمنعه عن فهمه كونه لا يعرف الكلام ، ولا يتكلم . واستغـرق فى حالته هذه وشاهد مـالا عين رأت ولا أذن سمعت ! ولا خطر على قلب بشر .

فلا تعلق قلبك بوصف أمر لم يخطر على قلب بشر ، فإن كثيراً من الأمور التى تخطـر على قلوب البشر قـد يتعذر وصـفهـا ، فكيف بأمر لا سبيل إلى خطوره على القلب ، ولا هو من عالمه ولا من طوره !؟ ولست

أعنى بالقـلب ولست أعنى بالقـلب جـسم القلب ، ولا الـروح التى فى تجويفه بل أعنى صورة تلك الروح الفائضة بقواها على بدن الإنسان ، فإن كل واحد من هذه الثلاثة قد يقال له « قلب » ولكن لا سبيل لخطور ذلك الأمر عـلى واحــد مـن هذه الثلاثة ، ولا يتـأتى التعبـير إلا عــما خطر عليها . ومن رام التعبير عن تلك الحال ، فقد رام مستحيلاً وهو بمنزلة من يريد أن يذوق الألوان من حـيث هى ألـوان ، ويطلب أن يكون السـواد مثلاً حلواً أو حامـضاً . لكنا ، مع ذلك ، لا نخليك عن إشارات نومىء بها إلى ما شاهده من عجائب ذلـك المقام ، على سبيل ضرب المثال ، لا على سبيل قرع باب الحقيقـة . إذ لا سبيل إلى التحقق بما فى ذلك المقام إلا بالوصول إليه .

فأصغ الآن بسمع قلبك ، وحدق ببصر عقلك إلى ما أشير به إليك لعلك أن تجـد منه هدياً يلقـيك على جـادة الطريق ! وشـرطى عليك أن لاتطلب منى فى هذا الوقت مزيد بيان بالمشافهة على ما أودعه هذه الأوراق فإن المجال ضيق ، والتحكم بالألفاظ على أمر ليس من شأنه أن يلفظ به خطر .

✿

فأقول : إنه لما فنى عن ذاته وعن جـميع الذوات ولم ير فى الوجود إلا الواحد الحى القيوم ، وشاهد ما شـاهد ، ثم عاد إلـى ملاحظة الأغيار عندما أفاق من حـاله تلك التى هى شبيهـة بالسكر ، خطر بباله أنه لا

ذات له يغاير بها ذات الحق تعالى ، وأن حقيقة ذاته هى ذات الحق ، وأن الشىء الذى كان يظن أولاً أنه ذاته المغايرة لذات الحق ، ليس شيئاً فى الحقيقة ، بل ليس ثم شىء إلا ذات الحق ، وأن ذلك بمنزلة نور الشمس الذى يقع على الأجسام الكثيفة فتراه يظهر فيها . فإنه وإن نسب إلى الجسم الذى ظهر فيه ،- فليس هو فى الحقيقة شيئاً سوى نور الشمس . وإن زال ذلك الجسم زال نوره ، وبقى نور الشمس مجاله لم ينقص عند حضور ذلك الجسم ولم يزد عند مغيبة . ومتى حدث جسم يصلح لقبول ذلك النور ، قبله ، فإذا عدم الجسم عدم ذلك القبول ، ولم يكن له معنى ، وتقوى عنده هذا الظن بما قد بان له من أن ذات الحق ، عزّ وجلّ ، لا تتكثر بوجه من الوجوه ، وأن علمه بذاته ، هو ذاته بعينها . فلزم عنده من هذا أن من حصل عنده العلم بذاته ، فقد حصلت عنده ذاته ، وقد كان حصل عنده العلم فحصلت عنده الذات . وهذه الذات لا تحصل إلا عند ذاتها ، ونفس حصولها هو الذات ؛ فإذن هو الذات بعينها . وكذلك جميع الذوات المفارقة للمادة العارفة بتلك الذات الحقة التى كان يراها أولاً كثيرة ، وصارت عنده بهذا الظن شيئاً واحداً . وكادت هذه الشبهة ترسخ فى نفسه لولا أن تداركه الله برحمته وتلافاه بهدايته ، فعلم أن هذه الشبهة إنما ثارت عنده من بقايا ظلمة الأجسام ، وكدورة المحسوسات . فإن الكثير والقليل والواحد والوحدة ، والجمع والاجتماع ، والافتراق ، هى كلها من صفات الأجسام ، وتلك الذوات المفارقة العارفة بذات الحق ، عزّ وجلّ ، لبراءتها عن المادة ، لا يجب أن

يقال إنها كثيرة ، ولا واحدة ، لأن الكثرة إنما هى مغايرة الذوات بعضها لبعض ، والوحدة أيضا لا تكون إلا بالاتصال . ولا يفهم شىء من ذلك إلا فى المعانى المركبة المتلبسة بالمادة .

غير أن العبارة فى هذا الموضع قد تضيق جدا لأنك إن عبرت عن تلك الذوات المفارقة بصيغة الجمع حسب لفظنا هذا ، أوهم ذلك معنى الكثرة فيها ، وهى بريئة عن الكثرة . وإن أنت عبرت بصيغة الأفراد ، أو هم ذلك معنى الاتحاد ، وهو مستحيل عليها .

وكأنى بمن يقف على هذا الموضع من الخفافيش الذين تظلم الشمس فى أعينهم يتحرك فى سلسلة جنونه ، ويقول : لقد أفرطت فى تدقيقك حتى أنك قد انخلعت عن غريزة العقلاء ، واطرحت حكم المعقول ، فإن من أحكام العقل أن الشىء إما واحد وإما كثير ، فليتئد فى غلوائه ، وليكف من غرب لسانه وليتهم نفسه ، وليعتبر بالعالم المحسوس الخسيس الذى هو بين أطباقه بنحو ما اعتبر به «حى بن يقظان» حيث كان ينظر فيه بنظر فيراه كثيراً كثرة لا تنحصر ولا تدخل تحت حد ، ثم ينظر فيه بنظر آخر ، فيراه واحداً . وبقى فى ذلك متردداً ولم يمكنه أن يقطع عليه بأحد الوصفين دون الآخر .

هذا فالعلم المحسوس منشأ الجمع والإفراد ، وفيه تفهم حقيقته وفيه الانفصال والاتصال ، والتحيز والمغايرة ، والاتفاق والاختلاف فما ظنه بالعالم الإلهى الذى لا يقال فيه كل ولا بعض ، ولا ينطق فى أمره

بلفظ من الألفاظ المسموعة ، إلا وتوهم فيه شيء على خلاف الحقيقة ، فلا يعرفه إلا من شاهده ؛ ولا تثبت حقيقته إلا عند من حصل فيه . وأما قوله : « حتى انخلعت عن غريزة العقلاء ، واطرحت حكم المعقول » فنحن نسلم له ذلك ، ونتركه مع عقله وعقلائه ، فإن العقل الذى يعنيه هو وأمثاله ، إنما هو القوة الناطقة التى تتصفح أشخاص الموجودات المحسوسة ، وتقتنص منها المعنى الكلى . والعقلاء الذين يعنيهم ، هم ينظرون بهذا النظر والنمط الذى كلامنا فيه فوق هذا كله ، فليسد عند سمعه من لا يعرف سوى المحسوسات وكلياتها ، وليرجع إلى فريقه الذين ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾(٥٠) .

فإن كنت ممن يقتنع بهذا النوع من التلويح والإشارة إلى ما فى العالم الإلهى ، ولا تحمل ألفاظنا من المعانى على ما جرت العادة بها فى تحميلها إياه ، فنحن نزيدك شيئاً مما شاهده « حى بن يقظان » فى مقام أولى الصدق الذى تقدم ذكره ، فنقول :

إنه بعض الاستغراق المحض ، والفناء التام ، وحقيقة الوصول ، شاهد للفلك الأعلى ، الذى لا جسم له ، ورأى ذاتا بريئة عن المادة ، ليست هى ذات الواحد الحق ، ولا هى نفس الفلك ، ولا هى غيرها ؛ وكأنها صورة الشمس التى تظهر فى مرآة من المرائى الصقيلة ، فإنها ليست هى الشمس ولا المرآة ولا هى غيرهما . ورأى لذات ذلك الفلك

المفارقة من الكمال والبهاء والحسن ، ما يعظم عن أن يوصف بلسان ، ويدق أن يكسى بحرف أو صوت ، ورآه في غاية من اللذة والسرور ، والغبطة والفرح ، بمشاهدته ذات الحق جلّ جلاله .

وشاهد أيضا للفلك الذى يليه ، وهو فلك الكواكب الثابتة ، ذاتاً بريئة عن المادة أيضاً ، ليست هى ذات الواحد الحق ، ولا ذات الفلك الأعلى المفارقة ، ولا نفسه ، ولا هى غيرها . وكأنها صورة الشمس التى تظهر فى مرآة قد انعكست إليها الصورة من مرآة أخرى مقابلة للشمس ، ورأى لهذه الذات أيضاً من البهاء والحسن واللذة مثل ما رأى لتلك التى للفلك الأعلى .

وشاهد أيضاً للفلك الذى يلى هذا ، وهو فلك زحل ذاتا مفارقة للمادة ليست هى شيئاً من الذوات التى شاهدها قبله ولا هى غيرها ؛ وكأنها صورة الشمس التى تظهر فى مرآة قد انعكست إليها الصورة من مرآة مقابلة للشمس ؛ ورأى لهذه الذات أيضا مثل ما رأى لما قبلها من البهاء واللذة .

وما زال يشاهد لكل فلك ذاتاً مفارقة بريئة عن المادة ليست هى شيئاً من الذوات التى قبلها ولا هى غيرها وكأنها صورة الشمس التى تنعكس من مرآة على مرآة ، على رتب مرتبة بحسب ترتيب الأفلاك وشاهد لكل ذات من هذه الذوات من الحسن والبهاء ، واللذة والفرح ، ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

إلى أن انتهى إلى عـالم الكون والفساد ، وهو جـميعه حـشو فلك القمر . فرأى له ذاتاً بريئة عن المادة ليست شيئاً من الذوات التى شاهدها قبلها ، ولا هى سواها . ولهذه الذات سـبعون ألف وجه ، فى كل وجه سبعون ألف فم ، فى كل فم سبعون ألف لسان ، يسبح بها ذات الواحد الحق ، ويقدسـها ويمجـدها ، لا يفتر ؛ ورأى لهـذه الذات ، التى توهم فيها الكثرة وليست كثـيرة ، من الكمال واللذة ، مثل الذى رآه لما قبلها . وكـأن هذه الذات صورة الشـمس التى تظهـر فى مـاء متـرجرج ، وقـد انعكست إليـها الصـورة من آخر المرايا التى انتـهى إليهـا الانعكاس على الترتيب المتقدم من المرآة الأولى التى قابلت الشمس بعينها .

ثم شاهد لنفسه ذاتاً مفارقـة ، لو جاز أن تتبعض ذات السبعين ألف وجـه ، لقلـنا أنهـا بعضـها . ولـولا أن هذه الذات حدثـت بعد أن لم تكن ، لقلنا إنها هى ! ولولا اخـتصاصها ببدنه عـند حدوثه ، لقلنا إنها لم تحدث ! وشـاهد فى هذه الرتبة ذواتاً ، مثل ذاته ، لأجسـام كانت ثم اضمحلت ، ولأجسام لم تزل مـعه فى الوجود ، وهى من الكثرة فى حد بحيث لا تتناهى إن جاز أن يقال لها كثيرة ، أو هى كلها متحدة إن جاز أن يقال لها واحد .

ورأى لذاته ولتلك الذوات التى فى رتبـته من الحسن والبـهاء واللذة غيـر المتناهية ، ما لا عين رأت ولا أذن سـمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ولا يصفه الواصفون ، ولا يعقله إلا الواصلون العارفون .

وشاهد ذواتاً كثيرة مفارقة للمادة كأنها مرايا صدئة ، قد ران عليها الخبث ، وهى مع ذلك مستدبرة للمرايا الصقيلة التى ارتسمت فيها صورة الشمس ، ومولية عنها بوجوهها ، ورأى لهذه الذوات من القبح والنقص ما لم يقم قط بباله ؛ ورآها فى آلام لا تنقضى ، وحسرات لا تنمحى ؛ قد أحاط بها سرادق العذاب ، وأحرقتها نار الحجاب ونشرت بمناشير بين الأنزعاج والانجذاب .

وشاهد هنا ذواتا سوى هذه المعذبة تلوح ثم تضمحل ، وتنعقد ثم تنحل ، فتثبت فيها وأنعم النظر إليها ، فرأى هولاً عظيماً وخطباً جسيماً ، وخلقاً حثيثا ، وأحكاماً بليغة ، وتسوية ونفخاً وإنشاء ونسخا . فما هو إلا أن تثبت قليلاً ، فعادت إليه حواسه ، وتنبه من حاله تلك التى كانت شبيهة بالغشى ، وزلت قدمه عن ذلك المقام ، ولاح له العالم المحسوس ، وغاب عنه العالم الإلهى : إذ لم يمكن اجتماعهما فى حال واحدة ، إذ الدنيا والآخرة كضرتين ، إن أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى ، فإن قلت يظهر مما حكيته من هذه المشاهدة ، أن الذوات المفارقة إن كانت لجسم دائم الوجود لا يفسد ، كالأفلاك ، كانت هى دائمة الوجود ؛ وإن كانت لجسم يؤول إلى الفساد كالحيوان الناطق ، فسدت هى واضمحلت وتلاشت ، حسبما مثلت به فى مرايا الانعكاس ، فإن الصورة لاثبات لها إلا بثبات المرآة ، فإذا فسدت المرآة صح فساد الصورة واضمحلت هى ؛ فأقول لك : ما أسرع ما نسيت

العهد ، وحلت عن الربط ، ألم نقدم إليك أن مجال العبارة هنا ضيق ، وأن الألفاظ على كل حال توهم غير الحقيقة وذلك الذى توهمته إنما أوقعك فيه ، أن جعلت المثال والممثل به على حكم واحد من جميع الوجوه .

ولا ينبغى أن يفعل ذلك فى أصناف المخاطبات المعتادة ، فكيف ها هنا والشمس ونورها ، وصورتها وتشكلها ، والمرايا والصور الحاصلة فيها ، كلها أمور غير مفارقة للأجسام ، ولا قوام لها إلا بها وفيها ؟ فلذلك افتقرت فى وجودها إليها وبطلت ببطلانها .

وأما الذوات الإلهية ، والأرواح الربانية ، فإنها كلها بريئة عن الأجسام ولواحقها ومنزهة غاية التنزيه عنها ، فلا ارتباط ولا تعلق بها ، وسواء بالإضافة إليها بطلان الأجسام أو ثبوتها ، ووجودها أو عدمها ؛ وإنما ارتباطها وتعلقها بذات الواحد الحق الموجود الواجب الوجود ، الذى هو أولها ومبدؤها وسببها وموجدها ، وهو يعطيها الدوام ويمدها بالبقاء والتسرمد ؛ ولا حاجة بها إلى الأجسام بل الأجسام محتاجة إليها . ولو جاز عدمها لعدمت الأجسام فإنها هى مباديها ، كما أنه لو جاز أن تعدم ذات الواحد الحق - تعالى وتقدس عن ذلك ؛ لا إله إلا هو ! - لعدمت هذه الذوات كلها ، ولعدمت الأجسام ، ولعدم العالم الحسى بأسره ، ولم يبقى موجود ، إذ الكل مرتبط بعضه ببعض . والعالم المحسوس وإن كان تابعاً للعالم الإلهى ، شبيه الظل له ؛ والعالم الإلهى

مستغـن عـنه وبـرىء منه فـإنه مع ذلك قد يسـتحيل فرض عدمه ، إذ هو لا مـحـالة تابع للعـالم الإلهى ، وإنما فـسـاده أن يبـدل ، لا أن يعـدم بالجملة، وبذلك نطق الكتاب العزيز حيـثما وقع هذا المعنى منه فى تسيير الجبال وتصييرها كالعهن(*) والناس كالفراش . وتكوير الشمس والقمر ، وتفجير البحار يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات .

فهذا الـقدر هو الـذى أمكنـنى الان أن أشـيـر إليـك بـه فيما شاهده « حى بن يقظان » فى ذلك المقام الكريم فلا تلتمس الزيادة عليه من جهة الألفاظ فإن ذلك كالمتعذر .

(*) الصوف .

-٩-

وأما تمام خبره – فسأتلوه عليك إن شاء الله تعالى : وهو أنه لما عاد إلى العالم المحسوس ، وذلك بعد جولانه حيث جال ، سئم تكاليف الحياة الدنيا ، واشتد شوقه إلى الحياة القصوى ، فجعل يطلب العود إلى ذلك المقام بالنحو الذى طلبه أولاً حتى وصل إليه بأيسر من السعى الذى وصل به أولاً ودام فيه ثانياً مدة أطول من الأولى . ثم عاد إلى عالم الحس . ثم تكلف الوصول إلى مقامه بعد ذلك فكان أيسر عليه من الأولى والثانية وكان دوامه أطول . وما زال الوصول إلى ذلك المقام الكريم يزيد عليه سهولة ، والدوام يزيد فيه طولا مدة بعد مدة حتى صار يصل إليه متى شاء ولا ينفصل عنه إلا متى شاء ؛ فكان يلازم مقامه ذلك ولا ينثنى عنه إلا لضرورة بدنه التى كان قد قللها ، حتى كان لا يوجد أقل منها . وهو فى ذلك كله يتمنى أن يريحه الله عز وجل من كل بدنه الذى يدعوه إلى مفارقة مقامه ذلك ، فيتخلص إلى لذته تخلصاً دائماً ، ويبرأ عما يجده من الألم عند الإعراض عن مقامه ذلك إلى ضرورة البدن

. وبقى على حالته تلـك حتى أناف على سبعة أسـابيع من منشئه وذلك خمسون عامـاً . وحينئذ اتفقت له صحبة أسال وكان من قصـته معه ما يأتى ذكره بعد هذا إن شاء الله تعالى .

ذكروا : أن جـزيرة قريبـة من الجزيرة التى ولد بهـا حى بن يقظان على أحد القـولين المختلفين فى صفة مـبدئه ، انتقلت إليـها ملة من الملل الصحـيحة المأخوذة على بعض الأنبـياء المتقـدمين ، صلوات الله عليهم . وكانت ملة مـحاكية لجمـيع الموجودات الحقيـقية بالأمثـال المضروبة التى تعطى خيالات تلك الأشياء ، وتثبت رسومها فى النفوس ، حسبما جرت به العادة فى مخاطـبة الجمهور ؛ فما زالت تلك الملة تنتـشر بتلك الجزيرة وتقوى وتظهر ، حتى قام بها ملكها وحمل الناس على التزامها .

وكان قد نشأ بتلك الجزيرة فتيان من أهل الفضل والرغبة فى الخير ، يسمى أحدهمـا أسالاً والآخر سلامـان ، فتلقيا تلك الملة وقـبلاها أحسن قبول ، وأخذا على أنفسـهما بالتزام جميع شرائعهـا والمواظبة على جميع أعمالها ، واصطحـبا على ذلك . وكانا يتفقهان فى بعض الأوقـات فيما ورد من ألفاظ تلك الشريعـة فى صفة الله عزّ وجلّ وملائكتـه ، وصفات الميعـاد والثواب والعقـاب . فأما أسـال فكان أشد غوصـاً على الباطن ، وأكثر عـثوراً على المعانى الروحـانية وأطمع فى التأويل . وأمـا سلامان صاحبه فـكان أكثر احتفاظا بالظاهر ، وأشـد بعداً عن التأويل ، وأوقف عن التـصرف والتأمل ؛ وكلاهـما مجـد فى الأعـمال الظاهرة ، ومحاسبة النفس ، ومـجاهدة الهـوى . وكان فى تلك الشـريعة أقوال تحـمل على

العزلة والانفراد ، وتدل على أن الفوز والنجاة فيهما ؛ وأقوال أخر تحمل على المعاشرة وملازمة الجماعة . فتعلق أسال بطلب العزلة ، ورجح القول فيها لما كان فى طباعه من دوام الفكرة ، وملازمة العبرة ، والغوص على المعانى ، وأكثر ما كان يتأتى له أمله من ذلك بالإنفراد . وتعلق سلامان بملازمة الجماعة ، ورجح القول فيها لما كان فى طباعه من الجبن عن الفكرة والتصرف . فكانت ملازمته الجماعة عنده مما يدرأ الوسواس ، ويزيل الظنون المعترضة ويعيذ من همزات الشياطين . وكان اختلافهما فى هذا الرأى سبب افتراقهما .

وكان أسال قد سمع عن الجزيرة التى ذكر أن حى بن يقظان تكون بها وعرف ما بها من الخصب والمرافق والهواء المعتدل ، وأن الانفراد بها يتأتى لملتمسه ، فأجمع على أن يرتحل إليها ويعتزل الناس بها بقية عمره. فجمع ما كان له من المال ، واكترى ببعضه مركباً تحمله إلى تلك الجزيرة، وفرق باقيه على المساكين ، وودع صاحبه سلامان وركب متن البحر ؛ فحمله الملاحون إلى تلك الجزيرة ؛ ووضعوه بساحلها ؛ وانفصلوا عنها .

فبقى أسال بتلك الجزيرة يعبد الله عزّ وجلّ ؛ ويعظمه ويقدسه ؛ ويفكر فى أسمائه الحسنى وصفاته العليا ؛ فلا ينقطع خاطره ؛ ولا تتكدر فكرته . وإذا احتاج إلى الغذاء تناول من ثمرات تلك الجزيرة وصيدها ما يسد بها جوعته . وأقام على تلك الحال مدة وهو فى أتم غبطة وأعظم

أنس بمناجاة ربه . وكان كل يوم يشاهد من ألطافه ومـزايا تحفه وتيسيره عليه فى مطلبه وغذائه ما يثبت يقينه ويقر عينه .

وكـان فى تلك المدة حى بن يقظان شـديد الاستـغراق فى مـقامـاته الكريمة ؛ فكان لا يبرح عن مـغارته إلا مرة فى الأسبـوع لتناول ما سنح من الغذاء ، فـلذلك لم يعثر عـليه أسال لأول وهلة ، بل كـان يتطوف بأكناف تلك الجزيرة ويسيح فى أرجائهـا ، فلا يرى إنسياً ولا يشاهد أثراً فيزيد بذلك أنسه وتنبسط نفسه لما كان قد عزم عليه من التناهى فى طلب العزلة والانفراد ..

إلى أن اتفـق فى بعض تلك الأوقـات أن خـرج حى بن يـقظان لالتماس غذائه وأسـال قد ألمّ بتلك الجهة ، فوقع بصر كـل واحد منهما على الآخر . فـأما أسال فلم يشك أنه من العـباد المنقطعين ، وصل إلى تلك الجزيرة لطلب العزلة عن الناس كما وصل هو إليها . فخشى إن هو تـعرض له وتعزف بـه أن يكون ذلك سـبباً لفساد حـاله وعائقاً بينه وبين أمله . وأما حى بن يقظان فلم يدر ما هو ، لأنه لم يره على صورة شيء من الحيوانات التى كان قد عاينها قبل ذلك . وكان عليه مدرعة سوداء من شعر وصوف ، فظن أنها لباس طبيعى . فوقف يتعجب منه ملياً . وولى أسال هارباً منه خيفة أن يشـغله عن حاله ، فاقتفى حى بن يقظان أثره لما كان فـى طبـاعه من البـحث عـن حـقائق الأشيـاء . فلما رآه يشـتد فى الهـرب . خنس عنه وتوارى له ، حـتى ظن أسال أنـه قد انصـرف عنه

وتباعد من تلك الجهة . فشرع أسال فى الصلاة والقراءة ، والدعاء والبكاء ، والتضرع والتـواجد ، حتى شغله ذلك عن كل شىء . فـجعل حى بن يقظان يتقرب منه قلـيلاً قليلاً ، وأسال لا يشعر بـه حتى دنا منه بحيث يسمع قـراءته وتسبيحـه ، ويشاهد خضـوعه وبكاءه . فسمع صـوتاً حسناً وحروفاً منظمة ، لم يعهد مثلها من شىء من أصناف الحيوان . ونظر إلى أشكاله وتخطيطه فرآه على صورته ، وتبين له أن المدرعـة التى عليه ليست جلداً طبيـعياً ، وإنما هى لباس مـتخذ مثل لبـاسه هو ، ولما رأى حـسن خشـوعه وتضـرعـه وبكائه لم يشك فى أنه من الذوات العارفـة بالحق ؛ فتشوق إليه وأراد أن يرى مـا عنده ، وما الذى أوجب بكاءه وتضرعه ؛ فزاد فى الدنو منه حـتى أحس به أسال ؛ فاشتـد فى العدو ، واشتدَّ حى بن يقظان فى أثره حتى التحق به - لما كـان أعطاه الله من القوة والبسطة فى العلم والجسم - فـالتزمه وقـبض عليه ؛ ولم يمكنه من البـراح . فلما نظر إليه أسـال وهو مكتس بجلود الحـيوانات ذوات الأوبار ؛ وشعره قد طال حتى جلل كثيراً منه ، ورأى ما عنده من سرعة العدو وقوة البطش ، فرق منه فرقاً شـديداً ، وجعل يستعطفه ويرغب إليه بـكلام لا يفهمه حى بن يقظان ولا يدرى ما هو ، غير أنه كان يميـز فيه شمائل الجزع . فكان يؤنسه بأصـوات كان قـد تعلمهـا من بعض الحيوانات ، ويجـر يده عـلى رأسـه ، ويمسح أعطافه . ويتملق إليه ، ويظهـر البشر والفرح به . حتى سكن جأش أسال وعـلم أنه لا يريد به سوءاً . وكان أسال قديمـاً لمحبـته فى علم التأويل . قـد تعـلـم أكثر الألسـن ، ومهـر فيها . فـجعل يكلم

حى بن يقظان ويسـاثله عن شأنه بكل لسـان يعلمه ويعالـج أفهامـه فلا يستطيع ، وحى بن يقظان فى ذلك كله يتعـجب مما يسمع ولا يدرى ما هو . غير أنه يظهر له البـشر والقبول . فاستغرب كل واحـد منهما أمر صاحبه .

وكان عند أسال بقية من زاد كان قد استصحبه من الجزيرة المعمورة ، فقربه إلى حى بن يقظان فلم يدر ما هو ، لأنه لم يكن شاهده قبل ذلك، فأكل منه أسال وأشار إليه ليأكل ففكر حى بن يقظان فيما كان ألزم نفسه من الشروط فى تناول الغذاء ، ولم يدر أصل ذلك الشىء الذى قدم له ما هو ، وهل يجوز له تناوله أم لا ! فامتنع عن الأكل .

ولم يزل أسال يرغـب إليه ويستـعطفه . وقد كـان أولع به حى بن يقظان فخشى إن دام على امتناعه أن يوحشه ، فأقدم على ذلك الزاد وأكل منه .

فلما ذاقه واستـطابه بدا له سوء ما صنع من نقض عـهوده فى شرط الغذاء ، وندم على فـعله ، وأراد الانفصال عن أسال والإقبـال على شأنه من طلب الرجـوع إلى مقامـه الكريم ، فلم تتـأت له المشاهدة بسـرعة . فرأى أن يقيم مع أسال فى عالم الحس حتى يقف على حقيقة شأنه ، ولا يبقى فـى نفسه هو نزوع إليـه ، وينصرف بعـد ذلك إلى مقـامه دون أن يشغله شاغل . فالتزم صحبة أسال .

ولما رأى أسال أيضا أنه لا يـتكلم ، أمن من غلوائه على دينه ورجا

أن يعلمه الكلام والعلم والدين ، فيكون له بذلك أعظم أجر وزلفى عند الله . فشرع أسال فى تعليمه الكلام أولاً بأن كان يشير له إلى أعيان الموجودات وينطق بأسمائها ، ويكرر ذلك عليه ويحمله على النطق ، فينطق بها مقترناً بالإشارة ، حتى علمه الأسماء كلها ، ودرجه قليلاً قليلاً حتى تكلم فى أقرب مدة .

فجعل أسال يسأله عن شأنه ومن أين سار إلى تلك الجزيرة ، فأعلمه حى بن يقظان أنه لا يدرى لنفسه ابتداء ولا أباً ولا أماً أكثر من الظبية التى ربته ، ووصف له شأنه كله وكيف ترقى بالمعرفة ، حتى انتهى إلى درجة الوصول .

❁

فلما سمع أسال منه وصف تلك الحقائق والذوات المفارقة لعالم الحس العارفة بذات الحق عزّ وجلّ ، ووصفه مما شاهده عند الوصول من لذات الواصلين وآلام المحجوبين ، لم يشك أسال فى أن جميع الأشياء التى وردت فى شريعته من أمر الله عز وجل ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وجنته وناره ، هى أمثلة هذه التى شاهدها حى بن يقظان؛ ؛ فانفتح بصر قلبه وانقدحت نار خاطره وتطابق عنده المعقول والمنقول ، وقربت عليه طرق التأويل ، ولم يبق عليه مشكل فى الشرع إلا تبين له ، ولا مغلق إلا انفتح ، ولا غامض إلا اتضح ، وصار من أولى الألباب . وعند ذلك نظر إلى حى بن يقظان بعين التعظيم والتوقير ، وتحقق عنده

أنه من أوليـاء الله الذين لا خوف عـليهم ولا هم يحـزنون[٥١] . فالتزم خدمته والإقتداء به والأخذ بإشارته فيما تعارض عنده من الأعمال الشرعية التى كان قد تعلمها من ملته .

وجعل حى بن يقظـان يستفـصحه عن أمـره وشأنه ، فجـعل أسال يصـف لـه شأن جزيرتــه ومـا فيها من العالم ، وكيف كـانت سيرهم قبل وصـول الملة إليهم . وكيف هى الآن بعـد وصولها إليهم ، ووصف له جمـيع ما ورد فى الشـريعة من وصف العـالم الإلهى ، والجنة والنار والبـعث والنشور ، والحشر والحساب ، والمـيزان والصراط . ففهم حى ابن يقظان ذلك كله ولـم ير فـيه شيئاً علـى خلاف ما شاهده فى مـقامه الكريم .

فعلـم أن الذى وصف ذلك وجاء به مـحق فى وصفـه ، صادق فى قوله ، رسول من عند ربه ؛ فآمن به وصدقه وشهد برسالته .

ثم جعل يسأله عما جاء به مـن الفرائض ، ووضعه من العبادات ؛ فوصف له الصلاة والزكـاة ، والصيام والحج ، وما أشبهـها من الأعمال الظاهرة ؛ فتلقى ذلك والتزمه ، وأخذ نفسه بأدائه امتثالاً للأمر الذى صح عنده صدق قـائله . إلا أنه بقى فى نفسه أمـران كان يتعجب منهـما ولا يدرى وجه الحكمة فيهما :

أحدهما - لم ضـرب هذا الرسول الأمثال للناس فى أكثر مـا وصفه من أمر العـالم الإلهى ، وأضرب عن المكاشفة حـتى وقع الناس فى أمر

عظيم من التجسيم ، واعتقاد أشياء فى ذات الحق هو منزه عنها وبرئ منها ؟ وكذلك فى أمر الثواب والعقاب !

والأمر الآخر - لم اقتصر على هذه الفرائض ووظائف العبادات وأباح الاقتناء للأموال والتوسع فى المأكل ، حتى يفرغ الناس للاشتغال بالباطل، والإعراض عن الحق ؟

وكان رأيه هو أن لا يتناول أحد شيئاً إلا ما يقيم به الرمق ؛ وأما الأموال فلم تكن لها عنده معنى . وكان يرى ما فى الشرع من الأحكام فى أمر الأموال : كالزكاة وتشعبها ، والبيوع والربا والحدود والعقوبات ، فكان يستغرب ذلك كله ويراه تطويلاً ، ويقول : « إن الناس لو فهموا الأمر على حقيقته لأعرضوا عن هذه البواطل ، وأقبلوا على الحق ، واستغنوا عن هذا كله ، ولم يكن لأحد اختصاص بمال يسأل عن زكاته ، أو تقطع الأيدى على سرقته ، أو تذهب النفوس على أخذه مجاهرة» .

وكان الذى أوقعه فى ذلك ظنه ، أن الناس كلهم ذوو فطر فائقة ، وأذهان ثاقبة ، ونفوس عازمة ، ولم يكن يدرى ما هم عليه من البلادة والنقص ، وسوء الرأى وضعف العزم ، وأنهم كالأنعام بل هم أضل سبيلا(٥٢) .

فلما اشتد إشفاقه على الناس ، وطمع أن تكون نجاتهم على يديه ، حدثت له نية فى الوصول إليهم ، وإيضاح الحق لديهم ، وتبيينه لهم ففاوض فى ذلك صاحبه أسال وسأله : هل تمكنه حيلة فى الوصول

إليهم ؟ فأعلمه أسال بما هم عليه من نقص الفطرة والإعراض عن أمر الله ، فلم يتأت له فهم ذلك ، وبقى فى نفسه تعلق بما كان قد أمله . وطمع أسال أيضا أن يهدى الله على يديه طائفة من معارفه المريدين الذين كانوا أقرب إلى التخلص من سواهم ، فساعده على رأيه ، ورأيا أن يلتزما ساحل البحر ولا يفارقاه ليلاً ولا نهاراً ، لعل الله أن يسنى لهما عبور البحر فالتزما ذلك وابتهلا إلى الله تعالى أن يهىء لهما من أمرهما رشداً . فكان من أمر الله عز وجل أن سفينة فى البحر ضلت مسلكها ، ودفعتها الرياح وتلاطم الأمواج إلى ساحلها . فلما قربت من البر رأى أهلها الرجلين على الشاطىء . فدنوا منها فكلمهم أسال وسألهم أن يحملوهما معهم ، فأجابوهما إلى ذلك ، وأدخلوهما السفينة ، فأرسل الله إليهم ريحاً رخاء حملت السفينة فى أقرب مدة إلى الجزيرة التى أملاها فنزلا بها ، ودخلا مدينتها ، واجتمع أصحابُ أسال به ، فعرفهم شأن حى بن يقظان ، فاشتملوا عليه اشتمالاً شديداً وأكبروا أمره ، واجتمعوا إليه وأعظموه وبجلوه ، وأعلمه أسال أن تلك الطائفة هم أقرب إلى الفهم والذكاء من جميع الناس ، وأنه إن عجز عن تعليمهم فهوعن تعليم الجمهور أعجز .

❁

وكان رأس تلك الجزيرة وكبيرها سلامان وهو صاحب أسال الذى كان يرى ملازمة الجماعة ، ويقول بتحريم العزلة ، فشرع حى بن يقظان

فـى تعليـمهـم وبث أسرار الحكمـة إليهـم . فمـا هو إلا أن ترقى عن الظاهر قليـلاً وأخذ فى وصف مـا سبق إلى فـهمـهم خلافـه ، فجـعلوا ينقبضون منه وتشمئز نفوسهم مما يأتى به ، ويتسخطونه فى قلوبهم ، وإن أظـهروا له الرضا فى وجهه إكراماً لغربتـه فيهم ، ومراعاة لحق صاحبهم أسال !

۞

وما زال حى بن يقظان يستلطفهم ليلاً ونهاراً ، ويبين لهم الحق سراً وجـهاراً ، فـــلا يزيدهم ذلك إلا نبوا ونفـاراً ، مع أنهم كانوا مـحبين للخـير ، راغبين فى الحـق ، إلا أنهم لنقص فطرتهم ، كانوا لا يطـلبون الحق من طريقه ولا يأخذونه بجـهة تحقيقه ، ولا يلتـمسونه من بابه ، بل كانوا لا يريدون معرفته من طريق أربابه . فيئس من إصلاحهم ، وانقطع رجاؤه من صلاحهم لقلة قبولهم .

۞

وتصـفح طبـقـات الناس بعـد ذلك ، فـرأى كل حـزب بما لديهم فرحون[٥٣] ، قـد اتخـــذوا إلههم هواهم[٥٤] ، ومـعبـودهم شهـواتهم ، وتهالكوا فى جمع حطام الدنيا ، ألهاهم التكاثر حتى زاروا المقابر[٥٥] ، لا تنجع فيهم المـواعظة ولا تعمل فيهم الكلمـة الحسنة ، ولا يزدادون بالجدل إلا إصراراً . وأما الحكمة فلا سبيل لهم إليها ، ولا حظّ لهم مـنها ، قد

غمرتهم الجهالة ﴿وران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾[٥٦] ﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم﴾[٥٧] .

❁

فلما رأى سرادق العذاب قد أحاط بهم ، وظلما الحجب قد تغشتهم ، والكل منهم - إلا اليسير - لا يتمسكون من ملتهم إلا بالدنيا ، وقد نبذوا أعمالهم على خفتها وسهولتها وراء ظهورهم ، واشتروا بها ثمناً قليلاً[٥٨] ، وألهاهم عن ذكر الله تعالى التجارة والبيع ، ولم يخافوا يوماً تنقلب فيه القلوب والأبصار[٥٩] ، بان له وتحقق على القطع ، أن مخاطبتهم بطريق المكاشفة لا تمكن وأن تكليفهم من العمل فوق هذا القدر لا يتفق ، وأن حظ أكثر الجمهور من الانتفاع بالشريعة إنما هو فى حياتهم الدنيا ليستقيم له معاشه ، ولا يتعدى عليه سواه فيما اختص هو به ، وأنه لا يفوز منهم بالسعادة الأخروية إلا الشاذ النادر ، وهو ﴿من أراد حرث الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن﴾[٦٠] .

﴿وأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هى المأوى﴾[٦١] ، وأى تعب أعظم وشقاوة أطم ممن إذا تصفحت أعماله من وقت انتباهه من نومه إلى حين رجوعه إلى الكرى لا تجد منها شيئاً إلا وهو يلتمس به تحصيل غاية من هذه الأمور المحسوسة الخسيسة إما مال يجمعه أو لذة ينالها

أو شهـوة يقضيهـا أو غيظ يتشـفى به أو جاه يحرزه أو عمل من أعـمال الشرع يتـزين به أو يدافع عن رقبتـه، وهى كلها ظلمات بـعضهـا فوق بعض فى بحـر لجى[٦٢] **﴿وإن منكم إلا واردها كـان على ربك حـتـمـا مقضيا﴾**[٦٣] .

فلـما فـهم أحـوال الناس وأن أكثرهـم بمنزلة الحيوان غـير الناطق علم أن الحكمة كلهـا والهداية والتـوفيق فيمـا نطقت به الرسل ووردت به الشـريعـة لا يمكن غيـر ذلك ولا يحتمل المزيـد عليه فلكل عـمل رجال وكـل ميسر لما خلق له **﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾**[٦٤] .

فانصرف إلى سلامان وأصحابه ، فاعـتذر عما تكلم به معهم وتبرأ إليـهم منه وأعـلمـهم أنه قـد رأى مـثل رأيهم واهتـدى بمـثل هديهم ، وأوصاهم بملازمة مـا هم عليه من التزام حدود الشـرع والأعمال الظاهرة وقلة الخـوض فيمـا لا يعنيهم ، والإيمان بـالمتشابهـات والتسليـم لها ، والإعراض عن البـدع والأهواء والاقتداء بالسلف الصالح والتـرك لمحدثات الأمور ، وأمرهم بمجانبة ما عليه جمهور العوام من أهمال الشريعة والإقبال على الدنيا وحذرهم عنه غاية التحـذير . وعلم هو وصاحبه أسال أن هذه الطائفة المريدة القاصرة لا نجاة لهـا إلا بهذا الطريق ، وأنها إن رفعت عنه إلى يفاع الاستبصار اختل ما هى عليه ولم يمكنها أن تلحق بدرجة السعداء وتذبذبت وانتكست وسـاءت عاقبتـها . وإن هى دامت على مـا هى عليه

حتى يوافيها اليقين فـازت بالأمن وكانت من أصحاب اليمين، **والسابقون السابقون أولئك المقربون**(٦٥) .

فودعاهم وانفصلا عنهم وتلطفا فى العـود إلى جزيرتهما حتى يسر الله عزّ وجلّ عليهما العبور إليها .

وطلب حى بن يقظان مقامه الكريم بالنحو الذى طلبه أولاً حتى عاد إليه ، واقـتدى به أسال حتى قـرب منه أو كاد وعبـدا الله بتلك الجزيرة حتى أتاهما اليقين .

-١٠-

هذا - أيدنا الله وإياك بروح منه - مـا كان من نبـاء حى بن يقظان وأسال وسلامـان وقد اشتمل على حظ من الكلام لا يوجـد فى كتاب ولا يسمـع فى معتـاد خطاب ، وهو من العلم المكنون الذى لا يقـبله إلا أهل المعرفـة بالله ، ولا يجهلـه إلا أهل الغرة بالله . وقد خـالفنا فيـه طريق السلف الصـالح فى الضنـانة به والشح عليـه . إلا أن الذى سـهل علينا إفشـاء هذا السر وهتك الحجاب ، مـا ظهر فى زماننا هذا من آراء فـاسدة نبغت بها متفلسفة العصر وصرحت بها ، حتى انتشرت فى البلدان وعم ضررها وخـشينا على الضـعفاء الذين اطرحـوا تقليد الأنبـياء صلوات الله عليـهم ، وأرادوا تقليد السـفـهاء والأغـبيـاء أن يظنوا أن تلك الآراء هى الأسرار المضنون بها على غيـر أهلها ، فيزيد بذلك حبهم فـيها وولعهم بها . فرأينا أن نلمح إليهم بطرف من سرّ الأسرار لنجتذبهم إلى جانب التحقيق ، ثم نـصدهم عن ذلك الطريق . ولم نخل مع ذلك ما أودعناه هذه الأوراق اليسـيرة من الأسـرار عن حجاب رقـيق وستر لطيـف ينتهك

سريعاً لمن هو أهـله ، ويتكاثف لمن لا يستحق تجاوزه حـتى لا يتعداه .
وأنا أسـأل إخوان الواقـفين على هذا الكـلام ، أن يقبلوا عـذرى فـيمـا تساهلت فى تبيينه وتسامحت فى تثبيته ، فلم أفعل ذلك إلا لأنى تسنمت شواهق يزل الطـرف عن مرآها . وأردت تقريب الكلام فـيهـا على وجه الترغيب والتشويق فى دخول الطريق . وأسأل الله التجاوز والعفو ، وأن يوردنا من المعرفة به الصفـو ، إنه منعم كريم . والسلام عليك أيها الآخ المفترض إسعافه ورحمة الله وبركاته .

هوامش :

(١) القرآن الكريم : سورة العلق : آية ٤ ، ٥ .

(٢) القرآن الكريم : سورة النساء : آية ١١٣ .

(٣) راجع المقدمة صفحة ٢١ .

(٤) ابن سينا (٣٧٠ - ٤٢٨هـ / ٩٨٠ - ١٠٧٣م) .

(٥) ينسب هـذا القـول لأبى يـزيد البسـطامى (١٨٨ - ٢٦١هـ/ ٨٠٤ - ٨٧٥م) .

(٦) من أقوال الحلاج (٠٠ - ٣٠٩هـ / ٠٠ - ٩٢٢م) .

(٧) الغزالى (٤٥٠ - ٥٠٥ هـ / ١٠٥٨ - ١١١١م) .

(٨) ابن باجه (٠٠ - ٥٣٣ هـ/ ٠٠ - ١١٣٩م) .

(٩) فى النفس . كـتاب لابن باجـة ، انظر : **ابن باجه** للدكتور عمر فروخ ، الطبعة الثانية . بيروت .

(١٠) **تدبير المتوحد** . كتاب لابن باجه ، انظر الدكـتور عمر فروخ ، المرجع السابق .

(١١) **رسالة الاتصال**: لعل المقصود إتصال الإنسان بالعقل الفعال. انظر كتاب «تلخيص كتاب النفس» لابن رشـد، الذى نشره أحمـد فؤاد الأهوانى، مصر ١٩٥٠، يشتمل على رسالة الاتصال، ١٠٢ - ١١٨ .

(١٢) الفارابى (٢٦٠ - ٣٣٩هـ / ٨٧٤ - ٩٥٠م) .

(١٣) **الملة الفاضلة** . انظر تحقيق الدكتور محسن مهدى لكتاب الملة، دار المشرق - بيروت .

(١٤) **السياسة المدنية** ، انظر نشرة الدكتور فوزى مترى نجار للكتاب بتحقيقه ، دار المشرق - بيروت .

(١٥) **كتاب الأخلاق** ، كتاب للفارابى ، راجع مقدمات الدكتور محسن مهدى لتحقيقاته لكتب الفارابى : **الملة** ، **الحروف** ، **الألفاظ** . منشورات دار المشرق - بيروت، وكذلك كتاب الدكتور عمر فروخ : **الفارابيان** ، منشورات مكتبة منيمنة بيروت سنة ١٩٥٠ وكتاب جوزف الهاشم : **الفارابى** ، من منشورات المكتب التجارى بيروت ، الطبعة الثانية سنة ١٩٦٨ ، ص ١٦٧ - ١٧٤ .

(١٦) أرسطو طاليس (٣٨٤ ق . م - ٣٤٨ ق.م) .

(١٧) **الشفاء** ، من أجلّ كتب ابن سينا الفلسفية ، ترجم إلى لغات أجنبية عديدة ، انظر ، كتاب الشفاء طبعة القاهرة ١٩٥٣ .

(١٨) **الفلسفة المشرقية** ، لعل المقصود كتاب «**الحكمة المشرقية**» ، وهو مفقود . انظر **دائرة معارف البستانى** ، مادة : ابن سينا .

(١٩) كتاب التهافت ، **تهافت الفلاسفة** للغزالى ، بتحقيق د. سليمان دنيا الطبعة الرابعة ، دار المعارف - القاهرة .

(٢٠) الميزان ، لعله «**ميزان العمل**» انظر هامش (٢٢) .

(٢١) **المنقذ من الضلال** . كتاب الغزالى المشهور ، انظر تحقيق د. جميل صليبة .

(٢٢) **ميزان العمل** ، للغزالى ، بتحقيق د. سليمان دنيا . دار المعارف – القاهرة .

(٢٣) **كتاب الجواهر** ، جواهر القرآن ودرره ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ١٩٧٤ .

(٢٤) **كتاب المعارف العقلية** ، كتاب الغزالى لا يزال مخطوطاً .

(٢٥) **النفخ والتسوية** ، كتاب للغزالى لم نعثر فى المراجع والمصادر المتوفرة لدينا على ما يفيد عنه .

(٢٦) **كتاب مسائل** مجموعة ، كتاب للغزالى لم نعثر فى المراجع والمصادر المتوفرة لدينا على ما يفيد عنه .

(٢٧) **كتاب المقصد الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى** ، للغزالى . بتحقيق د. فضلو شحاده ، دار المشرق ، بيروت .

(٢٨) **مشكاة الأنوار** ، بتحقيق د. أبو العلا عفيفى ، الدار القومية ، القاهرة ١٩٦٤ .

(٢٩) حى بن يقظان وأسال وسلامان: راجع صفحة ٢١ – ٢٤ من هذه المقدمة .

(٣٠) المقصود ابن سينا .

(٣١) القرآن الكريم سورة يوسف الآية ١١١ .

(٣٢) القرآن الكريم سورة ق الآية ٣٧ .

(٣٣) راجع المقدمة من صفحة ٢٥ لغاية صفحة ٢٧ .

(٣٤) أى ابن سينا .

(٣٥) يعنى بالتولد الذاتى الجغرافى . راجع المقدمة (صفحة ١٤-١٨ ، من ٧٢ ، ٧٣) وبند ١١٨ من المراجع والمصادر والتعليقات صفحة ٩٩ .

(٣٦) وصف للتكون والولادة الطبيعية للإنسان أى من أب وأم .

(٣٧) الجملة بين القوسين غير موجودة فى بعض الطبعات .

(٣٨) إشارة إلى الآية ٨٥ من سورة «الإسراء» من القرآن الكريم ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ .

(٣٩) عن حديث أخرجه البخارى عن أبى هريرة (**العينى** الجزء العاشر ص ٤٧١) .

(٤٠) عن حديث أخرجه البخارى .

(٤١) القرآن الكريم سورة الأنفال الآية ١٧ .

(٤٢) لعل الفقرة التالية (ومعرفة - أوردناه) استطراد من ابن طفيل أو من الناسخ .

(٤٣) القرآن الكريم سورة الملك الآية ١٤ .

(٤٤) القرآن الكريم سورة يس الآية ٥٢ .

(٤٥) القرآن الكريم سورة سبأ الآية ٣ .

(٤٦) القرآن الكريم سورة طه الآية ٥٠ .

(٤٧) القرآن الكريم سورة القصص الآية ٨٨ .

(٤٨) بعد هذا ترد الفقرة التالية نصها ولعلها استطرد من ابن طفيل نفسه أو من الناسخ «وإليه أشار الجنيد شيخ الصوفية وإمامهم، عند موته ، بقوله لأصحابه ، هذا وقت يؤخذ منه ، أكبر أوامرهم الصلاة» .

(٤٩) القرآن الكريم سورة إبراهيم الآية ٤٨ .

(٥٠) القرآن الكريم سورة الروم الآية ٧ .

(٥١) القرآن الكريم سورة البقرة الآيات ٣٦ ، ٢١٤ ، ٢٧٦ .

(٥٢) القرآن الكريم سورة الفرقان آية ٤٦ .

(٥٣) القرآن الكريم سورة المؤمنون آية ٥٥ وسورة الروم الآية ٣١ .

(٥٤) القرآن الكريم سورة الفرقان آية ٤٥ .

(٥٥) القرآن الكريم سورة التكاثر آية ١ ، ٢ .

(٥٦) القرآن الكريم سورة سورة المطففين آية ١٤ .

(٥٧) القرآن الكريم سورة البقرة آية ٦ .

(٥٨) القرآن الكريم سورة آل عمران آية ١٨٤ .

(٥٩) القرآن الكريم سورة النور آية ٣٧ .

(٦٠) القرآن الكريم سورة النحل آية ٢٠ .

(٦١) القرآن الكريم سورة النازعات آية ٣٧ ، ٣٩ .

(٦٢) القرآن الكريم سورة النور آية ٤٠ .

(٦٣) القرآن الكريم سورة مريم آية ٧٢ .

(٦٤) القرآن الكريم سورة الفتح آية ٢٣ .

(٦٥) القرآن الكريم سورة الواقعة آية ١٠ .

رقم الإيداع ٩٩/١١٧٦٣

I.S.B.N------------------------------

977 - 01- 6410 - 0

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب



المعرفة حق لكل مواطن وليس للمعرفة سقف ولا حدود ولا موعد تبدأ عنده أو تنتهى إليه.. هكذا تواصل مكتبة الأسرة عامها السادس وتستمر فى تقديم أزهار المعرفة للجميع. للطفل - للشاب - للأسرة كلها. تجربة مصرية خالصة يعم فيضها ويشع نورها عبر الدنيا ويشهد لها العالم بالخصوصية ومازال الحلم يخطو ويكبر ويتعاظم ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة لكل أسرة... وأنى لأرى ثمار هذه التجربة يانعة مزدهرة تشهد بأن مصر كانت ومازالت وستظل وطن الفكر المتحرر والفن المبدع والحضارة المتجددة.

سوزان مبارك



١٢٥ قرشاً

مكتبة الأسرة

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٩